الأرواح المُتمردة

جـبران خليل جـبران

الأرواح المُتمردة

SPIRITS REBELLIOUS

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية
بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

* الأرواح المتمردة / جبران خليل جبران
* مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي
* سنة الطباعة عام ٢٠٠٨ عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية،

منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشــكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي اســتطاعت أن تصــمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من ســـبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصـــدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشـــر تتســـابق على إعادة إصــدارها بطبعات شــعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كمـا أن أعمـال جبران لم تتجـاوز حـدود الزمـان فحســـب، بل تجاوزت حدود المكان أيضـــاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقـاع الأرض، بعـد أن تمـت ترجمتهـا إلى معظم لغات العالم.

واعتمـاداً على هـذا المعيـار الـذي قلّمـا يخطئ، فـإن المهمـة الملقـاة اليوم على عـاتق النقـاد والبـاحثين الـذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه،إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة ســـبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واســتقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في

الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصـــله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصـيرة مع فصـول سـيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام١٨٨٣ في مدينة صـــغيرة تقع فوق وادي قاديشـــا في شـــمال لبنان، تدعى (بشـــري). ومن الطريف أن جبران الذي كـان يؤمن أوثق الإيمـان بـالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحســب ولادته في شـــمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرســـوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما اضــطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها

ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوســطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سـيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رســائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شــقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من ســيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مســتقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوســطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرســم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشـرقي الذي يمتدح رسـومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند

إليه مهمة رســم أغلفة عدد من الكتب التي تنشــرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل خريف عام ١٩٨٩، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرســة أن جبران جاءه يشـكو وضـعه في الصـف الابتدائي رغم ما حَصَّـــلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرســم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن الســلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأسـتاذ أن الطائر لا ينتظر السـلّم في طيرانه)، فاقشــعر بدن الخوري الذي شــعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرســـة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلـة ودمنــة، ونهج البلاغــة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري)

رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من ألفة واطمئنان، ففي نيسان١٩٠٢ بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها

في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقى) عام ١٩٠٥، وأتبعه عام ١٩٠٦ بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام

١٩٠٨ والذي صـــدّره بالتقديم التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي ســكب أســراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شــعلـة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

ومـا كـان من مـاري هـاســكـل أمـام رغبـة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسـافر في تموز ١٩٠٨ حيث كانت ميشـلين في انتظـاره. ودخـل جبران أكـاديميـة (جوليـان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرســم معتمداً على فطرته دون أية دراســة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراســلـة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسـائله (ميشلين الحلوة هي أم صــغيرة عزيزة وطفلة صــغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشــتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه

الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة ١٩١٢ أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة، وتسمع نغمة الروح الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة ١٩١٢ بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة١٩١٦ كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام ١٩٢٠ أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية)

وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصـــدر عام ١٩١٩ قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام ١٩٢٠ كتابه (العواصف)، وفي عام ١٩٢٣ نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضـــل علاقته مع ماري هاســكل،التي اســتمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوســطن وتزوجت. وقد أصــــدر جبران كتـاب (المجنون) عـام ١٩١٨ بـاللغـة الإنكليزيـة وأتبعـه عـام ١٩٢٠ بكتـاب (الســـابق) وعـام ١٩٢٣ صـدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة ١٩٢٥ التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي أصــبحت ســكرتيرته الخاصـــة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصـــدر كتاب (رمل وزبد) عام ١٩٢٦، وكتاب (يســـوع بن الإنســـان) عام ١٩٢٧، و(آلهة الأرض) عام ١٩٣٠، و(التائه) سـنة ١٩٣١ وكتب فصـــولاً من كتـاب (حـديقـة النبي) التي ســـوف تعمـل سكرتيرته

على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع ١٩٣١ اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب

الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الموعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام١٩٢٩ حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي،جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين

الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكونّات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني

أما بنية الأدب الجبراني، فتتألف من مزيج من العناصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسي وواقعي وصوفي وثوري وحداثي في الوقت نفسه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تنجدل هذه الخيوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة

الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن لا ولا فيها الهموم

فإذا هبّ نسيم لم تجئ معه السموم

ليس في الغابات حرّ لا ولا العبد الذميم

إنما الأمجاد سخف وفقاقيع تعوم

لم أجد في الغاب فرقاً بين نفس وجسد

فالهوا ماء تهادى والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ وتنشّفتَ بنور

وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثير

هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً وتَلَحَفّتَ الفضا

زاهداً فيما سيأتي ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، ووَلَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصّاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصـــته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الـداعرة، قـد لا تكون ســـوى فتـاة فقيرة ســـحقهـا الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصـــة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لا يكونون أقل وحشـية وقدرة على ظلم الآخرين وسـلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما أن قصـــة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ـــ ولا يزال ـــ في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشـيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقهـا في الاختيـار فهي أمور يضـــرب بهـا المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآســـي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأســاس الواقعي لكل قصــص جبران الأخرى، مثل صـــراخ القبور، ومضـــجع العروس، وخليـل الكـافر والأجنحة

المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السـياسـية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضـهم على الثورة على الاحتلال، ويحـذرهم من مغبـة التعـاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لا سبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سـوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السـلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضـة الذات العربيـة حين يقول (أمـا الـذات العربيـة فقـد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصـبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها، ولما بلغت العباسـيين تربّعت على عرش منتصـب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصـارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشـرق إلى الغرب كرهت الذات العربيـة يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً

متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفســـها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضـــة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام ١٩١١ كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عـام ١٩١٦ كتـب نص (مـات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضـــتهم وتحررهم، كما في نص (الأضـــراس المســـوســـة)، ونص (المخـدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صـــوفيّة) جبران، فنلمســـها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصـول إلى المعرفـة. فـإذا كـان العقـل يرى المظهر الخـارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك

البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولا يمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه (دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً.. وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة

لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنســـان ونفســـه). والإنســـان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه (رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتســـحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشـــبّهة بالشـــمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصـــباح). وعندما يصـــف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصـــوفي أن يترفّع عن رغد الحاضـــر وكدره في ســـبيل تحقيق غايته الأســـمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فــإن تـرفَّـعـتَ عـن رغـدٍ وعـن كَـدَرٍ

جــاورتَ ظـلَّ الـذي حــارَتْ بــه الفكرُ

كما يقول في موضـــع آخر (ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه

العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

ولأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه

الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولـذلـك يعلن جبران ثورتـه على الحكّـام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضـد جماهير الفقراء والمستضـعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسـود هذا (علّة مزمنة قابضـة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجسـاد الفقراء الضـعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسـكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابسـاً والمطران يلتفت نحوهم مبتسـماً، وبين عبوسـة النمر وابتسـامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشـريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن

في اســتغلال الشــريعة لتبرير الســيطرة على جموع الشــعب، لذلك قال (الشــريعة، وما هي الشــريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشــيئته في البشــر؟ وفي أي جيل من الأجيال ســـار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضــعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمســك بموروث الماضـــي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (إن بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفســـه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصـــير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشـــكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضــر الناس بماضــي آبائهم، وتنيخ نفوســهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجســاداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام

١٩١١ بعد أن بلغته أخبار من ســـورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّـــر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا،بأن يعتمـدوا على الـذات.. أريـدهم أن يعرفوا أن عرش الســلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضـيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماســية التي لن تؤدي إلا إلى وضـع ســورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السـورية أضـراس بالية سـوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشـوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لا تشفى، ولن تشفى بغير

الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة ١٩١٧: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة

العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق). فلغة

الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان،الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يســـخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشــعر العربي والنســج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصـــالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون ســوى نســـخة ثانية باهتة لا نضـــرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه ســيصــبح مورداً لأفكـار عقيمـة ومقوداً لرؤوس مشـــاهير يومنـا لهرقـا المحـابر في محـاجر النســيـان، وحطّمـا الأقلام بـأيـدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يســير من مكان إلى مكان على الطريق التي ســار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشـــكال القديمة والصــيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من

نصـوص إبداعية بناء جميع أركان الصـرح الحداثي الذي بشّـــر بـه؟ بـالطبع لا. فتلـك مهمـة منوطـة بحركـة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحســب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضـاءت فضـاء الأدب العربي المعاصـر، وأضـرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي



الأرواح المُتمردة

دراسة تحليليّة

أصدر جبران كتاب (الأرواح المتمردة) في نيويورك عام ١٩٠٨،بعد ما يقرب من عامين على صدور (عرائس المروج). وفي هذا الكتاب يواصل النهج نفسه الذي بدأه في كتابه السابق، والذي يتجلى في اعتماده بناء النص على سرد حادثة أو حكاية تمثّل الفكرة العامة التي يريد طرحها، وتهيئ له المجال لاستعراض تأملاته، وتوصيل أفكاره على ألسنة شخصيّاتها. ولذلك فهو لا يعبأ كثيراً بالشروط الفنيّة التي تتطلبها القصة، فلا يعتني برسم أبطاله الذين يظهرون على صورة المثال المحدد سلفاً في ذهن الكاتب، لا كشخصيّات من لحم ودم يخوضون

صـــــراعـاتهم بمـا تؤهلهم لـه إمكـانـاتهم الطبيعيّـة وتجـاربهم الخـاصــــــة وبيئتهم المحـدودة. فنرى المرأة المظلومة تتحدث عن أدقّ أســـرار الوجود والحياة بلغة شـــاعرية لا تتأتى إلا للعباقرة الذين اســـتوعبوا صـــفوة النظريات الفكرية والفلســفية التي أنجزتها البشــرية عبر تاريخها الطويل. كما ترى الشاب الذي كان يرعى الأبقار في الـدير يلقي خطـابـاً في الحرّيـة والعـدالـة وفي نقض الشرائع وفضح الطغاة والمستبدين، بمنطق جليّ وبلاغة آســرة وبطولة نادرة لا يقدر عليها إلا من جمع فكراً ثاقباً وبصـــيرة نفّاذة ولغة عالية وقوة روحيّة وجســدية وجرأة فائقة، مما لا يجتمع عادة إلا عند بعض الأنبياء أو عظماء الثوريين. كمـا لا يحفـل جبران بـالزمن، فـالخطبـة التي يتطلب إلقاؤها أكثر من ســـاعة كاملة يلقيها خليل الكافر بين أيدي جلاديه الذين يتحمّلون سماعه بشكل لا يتناسب مع قســـوتهم وظلمهم . عدا عن أنه لا يهتمّ بأن تســـير الأحداث وفق ما تقتضـــيه صـــيرورتها الطبيعية، بل هو يقسرها على السير إلى الوجهة التي تؤكد أفكاره المسبقة ذات الطابع المثالي غير الواقعي، كما نرى في قصـــــة (خليل الكافر) نفسها حيث تكون الخطبة العصماء وحدها كفيلة

بتثوير جموع الفقراء والقضـــاء على الظالمين وقلب المجتمع من حال إلى حال..!

وفي الحقيقة، فإنه يمكن لنا اعتبار كتاب (الأرواح المتمردة) امتـداداً لكتـاب (عرائس المروج)، أو تطويراً وتعميقاً له. حيث يواصل جبران بسط آرائه وأفكاره حول المحاور نفسـها التي سـبق له عرضـها في كتابه السـابق، ولكن بشــكل أكثر عمقاً وشــمولية. وتتدرج هذه المحاور بشــكل عام تحت العناوين الرئيســة التالية: الحب، القهر الاجتماعي للمرأة، اضطهاد الأغنياء للفقراء، فساد رجال المؤسسة الدينية، وهي العناوين التي سنقوم باستعراضها فيما يلي:

١-الحب

في كتابه السـابق (عرائس المروج) خصـص جبران النص الأول (رمـاد الأجيـال والنـار الخـالـدة) لفكرة قهر الموت بـالحـب. فـالحـب هو وحـده من يســـتطيع تجـاوز الزمن، ويستطيع البقاء كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الأشياء.

وفي (الأرواح المتمردة) يواصل جبران الحديث عن

مفهومه للحب، فيؤكد على طبيعته الســـماوية التي تنفر من القوانين والشـــرائع الوضـــعية، وتتعالى على المواصفات المادية. فالحب خمرة سماوية يسكبها الله من عيني الرجل في قلب المرأة، كما يقول في مطلع نص (وردة الهاني). وهو قوة تبتدع قلوبنا، ولا تقدر قلوبنا أن تبتدعها، لأن المحبة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله. وليس الحب ســـوى شـــعاع لطيف، ونغمة علوية تضـــم روحي الحبيبين وتجعلهما عضـواً واحداً من جسـم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله. والحب لا يكون إلا بشريعة الروح، ولذلك فهو الذي يجعل النفس طاهرة نقية، لأنه وحده القادر على تحريرها من ربقة العادات والتقاليد ومن أثقال الحياة المادية. فإذا كانت الحياة أضـــعف من الموت، فإن الحب هو القوة التي تقهر الموت. ومثلما لم يكن لــــ (ناثان) وعروسه أن يحقّقا حبهما إلا بعد موتهما وعودة روحيهما مجدداً إلى الحيـاة ،في نص (رمـاد الأجيـال والنـار الخـالـدة)، فـإن بطلـة نص (مضـــجع العروس) في كتاب (الأرواح المتمردة) تؤمن أيضـــاً بأن هذا العالم لا يتســـع لمضـــجع حبها، لأن الآخرين جعلوه ضـــيقاً بتقاليدهم ومظلماً بجهالتهم، وفاســـداً بلهاثهم وراء أموره المادية.

لذلك فهو لا يليق بعناق المحبين. أما مضـــجع الحب الحقيقي فهو ذلـك الـذي ينتظرهـا مع حبيبهـا بعـد موت جسـديهما حيث تنكسـر القيود ،وتنفك السـلاسـل، فيرفع الحب أجنحته، ويسبح بهما نحو دائرة النور.

٢- القهر الاجتماعي للمرأة

يشـــكّل التصـــدي للقهر الاجتماعي للمرأة والمناداة بتحريرها من ربقة التقاليد الفاســـدة ، وقيود الشـــرائع الظالمة، واستبداد الحكام والأغنياء والمتنفذين، ركناً هاماً من أركان الثورة التي أعلنها جبران على مفاسد المجتمع ومظالمه. فمنذ أعماله الأولى أدرك أن تحرير المجتمع يبدأ من تحرير المرأة، لأن الظلم الواقع عليها هو التجسيد الأكثر وضـــوحاً لمحصـــلة جميع العوامل التي تســـتلب إنسـانية الإنسـان، وتدمّر طموحه ونضـاله في سـبيل عالم أكثر جمالاً وعدالة وحرية.

وإذا ربطنـا إدراكـه الثوري هـذا، مع مفهومـه عن الطبيعة السـامية العلْوية للحب، اسـتطعنا أن نفهم السـبب الذي جعل جبران يتخذ من مأســاة المرأة في علاقاتها مع الزوج والحبيب والمجتمع والمؤسسة الدينية، موضوعه

الأثير. ففي (عرائس المروج) بيّن لنا أن المرأة التي تمتهن الخطيئة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة استلب أحد الأثرياء شرفها ورمى بها إلى مهاوي الذل، مما جعلها تضطر إلى بيع جسدها لتكسب قوتها وقوت ابنها مثلما كان حال (مرتا البانية) التي بقيت نفسها طاهرة بالرغم من ذلك، وظلت تطلب الغفران والرحمة حتى فارقت الحياة. وهكذا فإن احتراف البغاء ما هو إلا نتيجة من نتائج الظلم الاجتماعي الواقع على المرأة. وفي (الأرواح المتمردة) يقدم جبران حالات أخرى من هذا الظلم الاجتماعي، منها حالة (وردة الهاني) التي قادها قدرها وهي في الثامنة عشرة من عمرها لتكون زوجة لرجل ثري يقرب عمره من الأربعين دون أن تحس بأي رابط يربطها به، سوى (سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدها قبل أن تعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة). إلى أن التقت بشاب خفق له قلبها واهتزّت له جوارحها فوقفت نفسها (بين رجل تحبّه بإرادة السماء، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض). فكانت بذلك مثالاً من أمثلة (النزاع المخيف الذي ابتدأ منذ ظهور الضعف في المرأة والقوّة في الرجل، ولا ينتهي حتى تنقضي أيام عبودية الضعف للقوة). أو من

أمثلة (الحرب الهائلة بين شـــرائع الناس الفاســـدة وعواطف القلب المقدســة). ويعطي جبران مفهوماً جديداً للزنى يصـوّب المفهوم الذي درج عليه المجتمع، فليسـت المرأة الزانية من تمنح جسدها للآخر خارج عقد الزواج، بل قد تكون المرأة زانية وخائنة في منزل زوجها إذا لم ترتبط بـه إلا بحكم العـادات والتقـاليد ودون أن تصـــبح قرينته بشريعة الروح والعواطف.

وإذا كانت (مرتا البادية) في (عرائس المروج) قد اسـتسـلمت لقدرها، فإن (وردة الهاني) أظهرت من القوّة ما جعل روحها تأبى أن تصـــرف العمر كله أمام (صـــنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة ودعته الشـريعة) فكسـرت قيودها وخرجت من المنزل خروج الأســـير من ســـجنه وهي عالمة بأنها لم تفعل غير الحق والواجب، وما الحق والواجب سـوى أن نحقق مشـيئة النفس التي فصـلها الله عن ذاته، وأن نتبع نداء القلب وصدى أغاني الملائكة.

ويقدّم جبران على لسـان (وردة الهاني) نفسـها نماذج أخرى من النســـاء اللواتي يعانين من أشـــكال مختلفة من القهر الاجتمـاعي، منهـا تلـك المرأة التي تزوجهـا رجـل غنـي

لا لأنه يحبها، بل للتقرّب من والدها ذي الشـــرف الموروث، فلم ينقض شـــهر العســـل حتى ملّها متضـــجراً وتركها في القصر مثلما يترك السكيّر جمرة خمر فارغة. ومنها تلك المرأة القبيحة الغنية التي استولى زوجها على ثروتها الطائلة ونســـي وجودها واتخذ له خليلة حســـناء. ومنها أيضـــاً المرأة العاقر التي تصـــبو حنيناً إلى الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتحرر من عبودية الرجل الذي يصـــرف الأيام بجمع الدنانير مجدّفاً على الســـاعة التي تزوج فيها من امرأة لا تلد له ابناً يحيي اسمه ويرث ماله.

إلا أن أكثر تلك النماذج تراجيدية هي بطلة قصـــة (مضـــجع العروس) التي قررت بشـــجاعة نادرة في ليلة عرسها أن تترك الرجل الذي زفّت إليه كرهاً واختاره لها الكذب بعلاً وتهرب إلى حبيبيها، لأن يد الحب التي مزجت روحها بروحه هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدها إلى مشيئة العريس، ولكن حبيبها خاف من عاقبة تصـــرفها فاضـــطر للكذب عليها، مما جعلها تتحول من الاســـتعطاف والرجاء والتوجع إلى الغضـــب والقسوة، فأغمدت خنجرها في صدره. فما كان منه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا أن صارحها بأنه لم يحب سواها

وأنه رأى أن التضحية بقلبه وسعادته وحياته أفضل من الهرب بها. فرفعت العروس خنجرها وأغمدته في صدرها على مرأى من الناس لتسقط بجانب حبيبها وهي تناجيه: (ها قد انمحت الرسوم وانحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي. هلم نذهب يا سليم، فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور).

وهكذا استعرض جبران الحالات المتعددة لأشكال القهر الاجتماعي الواقع على المرأة، والتي تبدأ من سلطة الأب الذي يستلب حريتها في اختيار شريك حياتها، ثم سلطة الزوج الذي يستلب جسدها وعواطفها وممتلكاتها، ثم سلطة الحاكم والمتنفّذ الذي يعمل على اضطهاد زوجها وإفقاره، ويعتبر أن من حقه انتزاعها منه حينما يريد، وعندما تقاومه يحكم عليها بالقتل. ثم سلطة رجل الدين المتحالف مع الحاكم والذي يؤمن الغطاء الديني والأخلاقي لأعماله الظالمة. وفي كل ذلك تقوم الشرائع والعادات والتقاليد التي سنّها المجتمع الذكوري بتشريع سلطة الرجل على المرأة وتبرير اضطهاده لها.

وفي مقولــة لا تخلو من جرأة في مجتمع يرفض المســاس بالتعاليم الموروثة والمقدســة، يؤكّد جبران أن ســلطة الرجل على المرأة ليســت من ناموس الطبيعة، وليست من إرادة السماء، ولم تكن في أصل نشأة البشرية، بل بدأت (منذ ظهور الضــعف في المرأة والقوّة في الرجل، ولا تنتهي حتى تنقضــي أيام عبودية الضــعف للقوة) حســب تعبيره. وليســت قوّة الرجل غير القوة الاقتصــادية التي احتكرها لنفســه وبنى بها المجتمع الذكوري، ولذلك لن تزول عبودية المرأة إلا بعد مساواتها في القوة الاقتصــادية مع الرجل، أي إنّ تحرير المرأة مرهون بتحررها الاقتصــادي ، وبذلك نلمس الطابع الثوري لفهم جبران لقضيّة المرأة وتحريرها.

٣- اضطهاد الأغنياء للفقراء

مما لا شــكّ فيه إن انقســام المجتمع إلى طبقة غنيّة تملك مقاليد الأمور وتحتكر مصــادر القوّة، وطبقة فقيرة تمثّل الغالبية التي تتعرض لجميع أشــكال الاســتغلال والاضطهاد، هو السمة المشتركة بين جميع المجتمعات البشــرية عبر العصــور كافة، اللهم إلا في المجتمع المشــاعي البدائي، أي قبل أن تظهر وتترســخ الملكية الخاصة. ولا

ريب في أن هذا الانقســـام يشـــكل المظهر الأكثر وضـــوحاً لافتقار المجتمع البشـــري إلى الحرية والعدالة والمســـاواة، كما أنه يشـــكّل الأرضـــيّة التي تنبع منها باســـتمرار جميع أشـــكال القهر والظلم الاجتماعي التي تعيق تحرّر الإنسان وتطوره وتحقيقه لإنسانيته الحقّة في هذا الكون.

ولذلك فإن جبران يعلن انحيازه الكامل والمطلق إلى جانب الفقراء الذين يمثّلون النبل والطهارة، ويصـــبّ جامّ غضبه على الأغنياء الذين تخلّوا عن إنسانيتهم، وتحوّلوا إلى وحوش كاسـرة لا همّ لهم سـوى نهش لحوم الآخرين من أجل تحقيق رغباتهم الدنيئة وأنانيتهم البغيضـة. بل إنه يتطرف في موقفه هذا إلى درجة أنك لا يمكن أن تجد في مؤلفاته جميعها شـــخصـــيّة فقيرة إلا ويصـــفها بجميع الصـــفات التي تجعلها قريبة من الملائكة والقدّيســـين، بالرغم من المآسي التي تعاني منها. بينما يصف الأغنياء بكل ما من شـــأنه أن يجرّدهم من أية صـــلة بالطبيعة الإنسانية النبيلة.

ولمّا كان جبران يؤمن بقدســيّة الإنســان، ويعتقد أن النفس البشرية ما هي إلا بضعة من الذات الإلهية، وأن

الله قد وهب النفوس (أجنحة لتطير بها سـابحة في فضـاء الحب والحرية)، فقد كان لا بدّ له أن يتسـاءل: (كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر؟). وإذا كان يسـوع قد جعل البشـر أحراراً بالروح والحق، فكيف يجعلهم الأغنياء عبيداً للحيف والفسـاد؟ ولذلك يحثّ جبران الفقراء على عدم الخضـوع للأغنياء الظالمين ويشـجعهم على مجابهتهم فيخاطبهم على لسـان (خليل الكافر) قائلاً: إذاً أي شيء يجعلكم تساعدون الشرير على نفوسـكم؟ ولماذا تخالفون مشـيئة الله الذي بعثكم أحراراً إلى هذا العالم وتصـيرون عبيداً للمتمردين على ناموسه؟).

ويدرك جبران أن هذا الظلم والاستغلال والاستبداد ضارب جذوره في أعماق التاريخ البشـري، من مقابض فرعون إلى مخالب نبوخذ نصر إلى أظافر الإسكندر إلى أسـياف هيرودس إلى براثن نيرون إلى أنياب الشـيطان، بالرغم من أن الفقراء أنفسـهم هم الذين بَنَو صـروح الحضارة البشرية، لذلك يصرخ جبران بلسانهم: (فحتى متى نبني القصـور والصـروح، ولا نسـكن غير الأكواخ والكهوف، ونملأ الأهرام والخزائن، ولا نأكل غير

الثوم والكراث،ونحوك الحرير والصوف، ولا نلبس غير المسوح والأطمار). إلا أن (مثاليّة) جبران تتجلى في رؤيته للخلاص الذي قد يأتي على يدي فرد يكون هو البطل المخلص، حيث يقول في مناجاته للحرية: (تكلمّي بلسان فرد واحد منّا، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس. أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق). كما تتجلّى (مثاليّته) أيضاً في إيمانه بأن الكلمة وحدها قادرة على التغيير الفوري للمجتمع، كما نرى في خاتمة قصة (خليل الكافر) حيث يكون للخطاب البليغ الذي ألقاه خليل أمام الجموع المحتشدة، وهو مقيّد بين يدي الشيخ عباس ، أثر السحر في النفوس، فيثور الفقراء، وينقلب الجنود على الشيخ عباس، الذي يصاب بدوره بالجنون. وينقلب حال القرية، فتصير الأرض ملكاً لمن يفلحها، وتصير الأكواخ بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة، وينتهي زمن اغتصاب الغلال واستعباد الإنسان، وتتهلل الوجوه فرحاً وترقص القلوب ابتهاجاً، ويُكْتَبُ تاريخ حياة (خليل الكافر) بأحرف من شعاع على صفحات القلوب.

٤- فساد رجال المؤسسة الدينية

لاحظ جبران، من خلال معاينته للواقع، أن المؤسسة الدينية لا تقوم بالدور الحقيقي المنوط بها، وهي العمل بموجب التعاليم التي تدعو إلى نشر الخير والمحبة والسلام ورعاية الفقراء والمستضعفين. بل إن الكاهن الذي يهابه الناس ويقيمونه وصيّاً على أقدس أسرار نفوسهم قد صار خائناً يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً، فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم، ومرائياً يقلّده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقه سيفاً سنيناً ويرفعه فوق رؤوسهم. ويرى جبران أن الكهّان ورؤساء الأديان قد أقاموا حلفاً مع الحكام والأثرياء والإقطاعيين، (فابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه.. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحل الأرواح). ولذلك يصرخ جبران على لسان خليل في وجوه الكهنة: (إن يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب، فأيّ تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتعدون

عن البشر وقد خلقكم الله بشرا؟.. كيف تنذرون الفقر وتعيشـــون كالأمراء، وتنذرون الطاعة وتتمرّدون على الإنجيل، وتنذرون العفّة وقلوبكم مفعمة بالشهوات؟) .

ومما لا شكّ فيه إن خطورة المؤسسة الدينية تنبع من كونها قادرة على الســيطرة على نفوس الناس من خلال ادّعائها تمثيل الشــريعة الســماوية، لذلك فإن عامّة الناس (يحسبون عدوّ الرهبان كافراً بالله وقديسيه) . أما الحقيقة فهي أن الشريعة التي يعمل بموجبها هؤلاء الكهنة ليست سوى (صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة) وهي بعيدة كلّ البعد عن شريعة السماء، فالسماء لا تريد أن يكون الإنســان تعساً، لأنه بسعادة الإنسـان يتمجّد الله. و(باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنســـان تعســـاً في حياته). ولذلك فإن أية شـريعة يتم توظيفها من أجل زيادة شقاء الإنسان وتبرير استغلاله واضطهاده، لا يمكن أن تكون من السماء. وهكذا يتساءل جبران: (الشريعة ــ وما هي الشـريعة؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال ســار الملائكة بين الناس قائلين احرموا الضعفاء نور الحياة،

وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

ولمّا كانت هذه الشرائع الفاسدة تشكّل الغطاء الروحي والفكري الذي يستند إليه أركان التحالف الأسود المؤلف من الحكّام والأغنياء والكهنة، لإحكام قبضتهم على جموع الفقراء والمستضعفين، وتبرير جرائمهم بحق الإنسانية، لذلك كان لا بدّ من التمرّد على هذه الشرائع التي لا تمتّ إلى السماء بصلة. وهذا ما جعل جبران يطلق هذه الصرخة المدوّية: (هل يظلّ الإنسان عبداً لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء الدهر، أم تحرّره الأيام ليحيا بالروح وللروح؟ أيبقى الإنسان محدّقاً إلى التراب أم يحوّل عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظلّ جسده بين الأشواك والجماجم؟).

وأخيراً، فهذه هي المحاور الرئيسة التي عالجها جبران في هذا الكتاب، والتي أقام عليها رؤياه المتمردة على كل ما يعيق حريّة الإنسان، ويعرقل مسيرته، ويشوّه صورته التي يجب أن تكون في أعلى درجة من السموّ، وأبهى حالة من السطوع، لتكون جديرة بتمثيل القوّة

العلوية التي أبدعت الحياة والوجود. وفي سـبيل هذه الرؤيا ضحّى جبران بالأسس الفنية التي يجب أن يقوم عليها بناء القصة، تماماً كما فعل في كتابه السابق (عرائس المروج). إلا أن لغته هنا أصبحت أكثر إشراقاً، وتعابيره أقوى تماسكاً، وصوره أعلى تحليقاً وأشدّ إيحاءً، مما أضفى على نصوصه مسحة من الشاعرية. هذه الشاعرية التي سوف تصبح في مؤلفاته اللاحقة سمة خاصة من سمات الأدب الجبراني.

د. نزار بريك هنيدي
دمشق ٢٠٠٢/٦/٢٢

جـبران خليل جـبران

الأعمال الكاملـة (٣)

الأرواح المُتمردة

SPIRITS REBELLIOUS

BY KAHLIL GIBRAN

(١٩٠٨)

إلى الروح التي عانقت روحي.

إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي.

إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي

أرفع هذا الكتاب.

جبران

وردة الهاني

- ١ -

ما أتعس الرجل الذي يحبّ صبيّة من بين الصبايا ويتّخذها رفيقة لحياته، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه، ويضع بين كفّيها ثمار أتعابه وغلّة اجتهاده، ثمّ ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الأيّام وسهر الليالي قد أعُطي مجاناً لرجل آخر ليتمتّع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبّته.

وما أتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه، ويسربلها بالتكريم والمؤانسة، لكنّه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحبّ المحيية، ولا يستطيع أن يشبع روحها من

الخمرة الســماويّة التي يســكبها الله من عيني الرجل في قلب المرأة.

* * *

عرفت رشــيد بك نعمان منذ حداثتي. وهو رجل لبناني الأصــل، بيروتي المولد والدار، متحدّر من أســرة قديمة غنيّة موصــوفة بالمحافظة على ذكر الأمجاد الغابرة، فكان مولعاً بســرد الحوادث التي تبيّن نبالة آبائه وجدوده، متبعاً بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم. منصرفاً إلى تقليدهم في العادات والأزياء الغربيّة المرفوفة كأســراب الطيور في فضاء الشرق.

وكان رشــيد بك طيّب القلب كريم الأخلاق، لكنّه كالكثيرين من ســكّان ســوريا، لا ينظر إلى ما وراء الأشياء، بل إلى الظاهر منها. ولا يصغي إلى نغمة نفسه. بل يشغل عواطفه باستماع الأصوات التي يحدثها محيطه. ويلهي ميوله ببهرجة المرئيات التي تعمي البصــيرة عن أســرار الحياة وتحوّل النفس عن إدراك خفايا الكيان إلى ملاحظة الملذات الوقتيّة. وكان من أولئك الرجال الذين يتسرّعون بإظهار محبّتهم أو مقتهم للناس وللأشياء. ثمّ

يندمون على تسرّعهم بعد فوات الوقت، عندما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران.

هذه هي الصفات والأخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقترن بالسيّدة وردة الهاني قبل أن تضمّ نفسها نفسه في ظلّ المحبّة الحقيقيّة التي تجعل الحياة الزوجيّة نعيماً.

* * *

غبت عن بيروت بضعة أعوام، ولما رجعت إليها، ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد، مكمد اللّون، تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الأحزان وتنبعث من عينيه الحزينتين نظرات موجعة تتكلّم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره. وبعيد أن بحثت في محيطه ولم أجد أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً: ما أصابك أيّها الرجل وأين تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشعاع من وجهك؟ وأين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقاً شبيبتك؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز، أم سلبتك الليالي السوداء مالاً جمعته في الأيام البيضاء؟ قل لي بحق الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة

نفسك، وهذا التحوّل المالك جسدك؟

فنظر إلي نظرة متأسف أرته الذكرى رسوم أيّام جميلة ثم حجبتها. وبصوت تتموج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال: إذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الأصدقاء الكثيرين فيتبصّر ويتعزّى، وإذا خسر الإنسان مالاً وفكّر قليلاً رأى النشاط الذي أتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو. ولكت إذا أضاع الرجل راحة قلبه فأين يجدها وبِمَ يستعيض عنها؟ يمدّ الموت يده ويصفعك بشدّة فتتوجّع، ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتى تشعر بملامس أصابع الحياة فتبتسم وتفرح. يجيئك الدهر على حين غفلة، ويحدّق إليك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك بأظفار محدّدة ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك بأقدامه الحديدية ويذهب ضاحكاً، ثمّ لا يلبث أن يعود إليك نادماً مستغفراً فينتشلك بأكفّه الحريرية ويغنّي لك نشيد الأمل فيطربك. مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع أخيلة الليل تضمحلّ أمامك بمجيء الصباح، وأنت شاعر بعزيمتك متمسّك بآمالك. ولكن إذا كان نصيبك من الوجود طائراً تحبّه وتطعمه حبّات قلبك وتسقيه نور أحداقك؟ وتجعل ضلوعك له

قفصــاً ومهجتك عشّــاً، وبينما أنت تنتظر إلى طائرك وتغمر ريشــه بشــعاع نفســك، إذا به قد فرّ من بين يديك وطار حتى حلّق فوق الســـحاب، ثمّ هبط نحو قفص آخر وما من سبيل إلى رجوعه، فماذا تفعل إذ ذاك أيّها الرجل، قل لي ماذا تفعل وأين تجد الصبر والسلوان، وكيف تحيي الآمال والأماني؟

لفظ رشيد بك الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق متوجّع ووقف على قدميه مرتجفاً كقصـــبة في مهبّ الريح، ومدّ يديه إلى الأمام كأنّه يريد أن يقبض بأصابعه المعوجّة على شيء ليمزّقه إرباً إرباً، وقد تصاعد الدم إلى وجهه وصبغ بشـــرته المتجعّدة بلون قاتم، وكبرت عيناه وجمدت أجفانه وحدق دقيقة كأنّه رأى أمامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته، ثمّ نظر إليّ وقد تغيّرت ملامحه بســـرعة وتحوّل الغضـــب والحنق في جســـده المهزول إلى التوجّع والألم وقال باكياً: هي المرأة ـــــــ المرأة التي أنقذتها من عبوديّة الفقر، وفتحت أمامها خزائني وجعلتها محســـودة بين النســـاء على الملابس الجميلـة والحلى الثمينـة، والمركبات الفخمة والخيول المطهّمة ـــ المرأة التي أحبّها قلبي وســـكب على قدميها عواطفه، ومالت إليها نفســـي فغمرتها بالمواهب

والعطايا ـــ المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصـــاً وزوجاً أميناً قد خانتني وغادرتني، وذهبت إلى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال الفقر، وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار، وشـــرب الماء الممزوج بالذلّ والعيب ــــ المرأة التي أحببتها ــــ الطائر الجميل الذي أطعمته حبّات قلبي وسقيته نور حدقتيّ وجعلت ضلوعي له قفصـــاً ومهجتي عشـــاً، قد فرّ من بين يديّ وطار إلى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان، ويشرب من جوانبه السمّ والعلقم ـــــ الملاك الطاهر الذي أسـكنته فردوس محبّتي وانعطافي، قد انقلب شـــيطاناً مخيفاً وهبط إلى الظلمة ليتعذب بآثامه ويعذّبني بجريمته.

وســـكت الرجل وقد حجب وجهه بكفّيه كأنّه يريد أن يحمي نفسه من نفســـه ثمّ تنهّد قائلاً: هذا كلّ ما أقدر أن أقوله فلا تســألني أكثر من ذلك، ولا تجعل لمصـــيبتي صـــوتاً صـــارخاً، بل دعها مصـــيبة خرســـاء لعلّها تنمو بالســـكينة فتميتني وتريحني. فقمت من مكاني والدموع تراود أجفاني والشفقة تسحق قلبي. ثمّ ودعته ساكناً لأنّني لم أجد في الكلام معنى يعزّي قلبه الجريح، ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة.

- ٢ -

بعد أيام التقيت لأوّل مرّة بالسـيّدة وردة الهاني في بيت حقير محاط بالزهور والأشـجار. وكانت قد سـمعت لفظ اسـمي في منزل رشـيد بك نعمان. ذلك الرجل الذي داسـت قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة. ولمّا رأيت عينيها المنيرتين وسمعتُ نغمة صوتها الرخيمة. قلت في ذاتي: أتقدر هذه المرأة أن تكون شرّيرة؟ وهل بإمكان هذا الوجه الشفّاف أن يستر نفساً شـنيعة وقلباً مجرماً؟ أهذه هي الزوجة الخائنة؟ أهذه هي المرأة التي جنيتُ عليها مرّات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبئ في جسم طائر بديع الشكل؟ ولكني رجعت وهمست في سرّي قائلاً: إذن أيّ شيء جعل ذلك الرجل تعساً إذا لم يكن هذا الوجه الجميل؟ أوَلم نسـمع ونرَ أن المحاسـن الظاهرة كانت سـبباً لمصـائب خفيّة هائلة وأحزان عميقة أليمة؟ أوَليس القمر الذي يسـكب في قرائح الشـعراء شـعاعاً هو القمر الذي يهيج سكينة البحار بالمدّ والجزر؟

جلستُ وجلسَت السيّدة وردة وكأنها قد سمعتني

مفكّراً فلم ترد أن يطول الصـــراع بين حيرتي وظنوني، فأسندتْ رأسها الجميل بيدها البيضاء، وبصوت يحاكي نغمة النّاي رقّة قالت: لم ألتقِ بك قبل الآن أيّها الرجل، ولكني سمعتُ صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس فعرفتك شـــفوقاً على المرأة المظلومة، رؤوفاً بضـعفها، خبيراً بعواطفها وميولها. من أجل ذلك أريد أن أبسط لك قلبي وأفتح أمامك صدري، لترى مخبّآته وتخبر الناس إن شـــئت بأن وردة الهاني لم تكن قطّ امرأة خائنة شرّيرة..

كنتُ في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر إلى رشيد بك نعمان، وكان هو إذ ذاك قريباً من الأربعين، فشـــغف بي ومال إليّ ميلاً شـــريفاً كما يقول الناس، ثمّ جعلني زوجة له وسـيّدة في منزله الفخم بين خدّامه الكثيرين، فألبسني الحرير وزيّن رأسي وعنقي ومعصميّ بالجواهر والحجارة الكريمة، وكان يعرضـــني كتحفة غريبة في منازل أصـدقائه ومعارفه، ويبتسـم ابتسـامة الفوز والانتصـــار عندما يرى عيون أترابه ناظرة إليّ بإعجاب واستحسان، ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً إذ يسمع نســاء أصـحابه يتكلّمن عنّي بالإطراء والمودّة. ولكنّه لم يكن يسمع قول السائل: أهذه زوجة رشيد بك

أم هي صـبيّة تبنّاها؟ وقول الآخر: لو تزوّج رشـيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سناً من وردة الهاني؟

جرى كل ذلك قبل أن تسـتيقظ حياتي من سـبات الحداثة العميق، وقبل أن توقد الآلهة شـعلة المحبّة في قلبي، وقبل أن تنبت بذور العواطف والميول في صدري. نعم جرى كلّ ذلك عندما كنت أحسـب منتهى السـعادة في ثوب جميل يزيّن قامتي، ومركبة فخمة تجرّني، ورياش ثمينة تحيط بي. ولكن عندما استيقظت ـ عندما استيقظت وفتح النور أجفاني، وشعرت بألسنة النار المقدّسة تلسع أضلعي وتحرقها، وبالمجاعة الروحيّ تقبض على نفسي فتوجعها ــ عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرّك يميناً وشمالاً وتريد النهوض بي إلى سماء المحبّة، ثمّ ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدي قبل أن أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة ـ عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء، عرفن أن سعادة المرأة ليسـت بمجد الرجل وسـؤدده، ولا بكرمه وحلمه، بل بالحبّ الذي يضمّ روحها إلى روحه، وبسكب عواطفها في كبده، ويجعلها ويجعله عضواً واحداً في جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله ـ عندما بانت

هذه الحقيقة الجارحة لبصـــيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لصّ سارق يأكل خبزه ثمّ يستتر بظلام الليل. وعرفت أن كلّ يوم أصـــرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطّها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والســماء، لأنني لم أقدر أن أهبه محبّة قلبي لقاء كرمه، ولا أن أمنحه انعطاف نفســي ثمناً لإخلاصــه وصــلاحه. وقد حاولت وباطلاً حاولت أن أتعلّم محبّته فلم أتعلّم، لأنّ المحبّة هي قوة تبتدع قلوبنا، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها. ثمّ صــليت وتضــرعت وباطلاً تضــرّعت وصـلّيت في سكينة الليالي أمام السماء لتولّد في أعماقي عاطفة روحيّة تقرّبني من الرجل الذي اختارته رفيقاً لي فلم تفعل الســماء، لأن المحبة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر. وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحســد عصــافير الحقل على حرّيتها، وبنات جنســي يحســدنني على ســجني. وكالثكلى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبي الذي ولد بالمعرفة واعتلّ بالشرعية. وكان يموت في كلّ يوم جوعاً وعطشاً.

ففي يوم من تلك الأيام الســوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعاً لطيفاً ينسكب من عيني فتى يسير

وحده على ســبل الحياة، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه في هذا البيت الحقير. فأغمضــت عيني كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسي: نصيبك يا نفس ظلمة القبر، فلا تطعمي بالنور. ثمّ أصــغيت فســمعت نغمة علوية تهزّ جوارحي بعذوبتها وتمتلك كليتي بطهرها، فأغلقت أذني وقلت نصــيبك يا نفس صــراخ الهاوية فلا تطمعي بالأغاني.. أغمضت أجفاني كيلا أرى، وأغلقت أذنيّ كيلا أسمع. لكن عينيّ ظلّتا تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتان، وأُذنيّ تســمعان تلك النغمة وهما مغلقتان، فخفت لأوّل وهلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصــر الأمير فلم يجســر أن يلتقطها لخوفه، ولم يقدر أن يتركها لفاقته. وبكيت بكاء ظامئ رأى الينبوع العذب محاطاً بكواســر الغاب فارتمى على الأرض مترقباً جازعاً.

وســكتت الســيدة وردة دقيقة، وقد أغمضــت عينيها الكبيرتين كأن ذلك الماضــي قد انتصب أمامها فلم تجسر أن تحدّق إليّ وجهاً لوجه. ثمّ عادت فقالت: هؤلاء البشــر الذين يجيئون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبّه بإرادة

السماء، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض. هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الأنثى ودموعها يقرؤها الرجل ضاحكاً لأنّه لا يفهمها، وإن فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوة وأنزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكبريتاً، وملأ أذنيها لعناً وتجديفاً.

هي رواية موجعة تمثلها الليالي السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد جسدها مقيّداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل أن تعرف ما هي الزيجة. وترى روحها مرفوفة حول آخر تحبّه بكلّ ما في الروح من المحبّة وبكلّ ما في المحبّة من الطهر والجمال. هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور الضعف في المرأة والقوّة في الرجل. ولا ينتهي حتى تنقضي أيام عبودية الضعف للقوة. هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدّسة قد طُرحتُ بالأمس في ساحتها وكدتُ أموت جزعاً وأذوب دموعاً، لكنني وقفت ونزعت عني جبانة بنات جنسي وحللتُ جناحيّ من ربط الضعف والاستسلام وطرت في فضاء الحب والحريّة. وأنا سعيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجتُ شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور. ولا توجد قوة في هذا العالم تستطيع أن تسلبني سعادتي لأنّها

منبثقة من عناق روحين يضـــمهما التفاهم ويظلّلهما الحبّ.

ونظرت إليّ السيدة وردة نظرة معنويّة كأنّها تريد أن تخترق صـــدري بعينيها لترى تأثير كرمها في عواطفي وتسـمع صـدى صـوتها من بين ضـلوعي. لكنني بقيت صـامتاً كيلا أوقفها عن الكلام. فقالت وقد قارن صـوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحريّة:

يقول لك الناس إن وردة الهاني امرأة خائنة جحود قد اتبعت شـهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها إليه وجعلها سيّدة في منزله. ويقولون لك هي زانية عاهرة قد أتلفت بمقابضها القذرة إكليل الزواج المقدس الذي ضفرته الديانة. واتخذت عوضـاً عنه إكليلاً وسـخاً محبوكاً من أشواك الجحيم، وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت لباس الإثم والعار. ويقولون أكثر من ذلك لأن أشـباح جدودهم ما زالت حيّة في أجسـادهم. فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجّعون صـدى أصـوات ولا يفهمون معناها. هم لا يعرفون شـريعة الله في مخلوقاته، ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي، ولا يعلمون متى يكون الإنسان خاطئاً أو بارّاً، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة إلى ظواهر الأعمال ولا

يرون أسرارها، فيقضون بالجهل ويدينون بالعماوة، ويستوي أمامهم المجرم والبريء والصالح والشرّير.

فويل لمن يقضـــي وويل لمن يدين.. أنا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان لأنّه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل أن تصـيّرني السـماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف. وكنت دنسة ودنيئة أمام نفسي وأمام الله عندما كنت أُشبع جوفي من خيراته ليشبع ميوله من جســدي. أمّا الآن فصـــرت طاهرة نقيّة لأن ناموس الحب قد حرّرني. وصــرت شــريفة وأمينة لأنّني أبطلت بيع جســـدي بالخبز وأيّامي بالملابس. نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحســبونني زوجة فاضـــلة، واليوم صــرت طاهرة وشــريفة وهم يحســبونني عاهرة دنســة لأنّهم يحكمون على النفوس من مآتي الأجســاد، ويقيسون الروح بمقاييس المادة.

والتفتت الســيّدة وردة نحو النافذة وأشــارت بيمينها نحو المدينة ورفعت صــوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاحتقار والاشــمئزاز كأنّها رأت بين الأزقّة وعلى السطوح وفي الأروقة أشباح المفاسد وأخيلة الانحطاط: انظر إلى

هذه المنازل الجميلة والقصـــور الفخمة العالية حيث يســـكن الأغنياء والأقوياء من البشـــر، فبين جدرانها المكسـوة بالحرير المنسـوج تقطن الخيانة بجانب الرياء، وتحت سـقوفها المطليّة بالذهب المذوّب يقيم الكذب بقرب التصـــنّع. انظر وتأمّل جيداً بهذه البنايات التي تمثّل لك المجد والسؤدد والسعادة، فهي ليست سوى مغاور يختبئ فيها الذلّ والشقاء والتعاسة. هي قبور مكلّسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه، وتنحجب في زواياها أنانيّة الرجل وحيوانيته بلمعان الفضّـــة والذهب. هي قصـــور تتشـــامخ جدرانها تيهاً وافتخاراً نحو العلاء، ولو كانت تشـــعر بأنفاس المكاره والغش الســـائلة عليها لتشـــقّقت وتبعثرت وهبطت إلى الحضـــيض. هي منازل ينظر إليها القروي الفقير بعينين دامعتين، ولو علم أنّه لا يوجد في قلوب ســـكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئاً وعاد إلى حقله مشفقاً.

وأمســـكت وردة بيدي وقادتني إلى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصـــور وقالت: تعالَ فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرضَ أن أكون مثلهم.

انظر إلى ذلك القصر ذي الأعمدة الرخاميّة والجوانح النحاسية والنوافذ البلّورية، ففيه يسكن رجل غنيّ ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقّة المفعمة بالمفاسد. وقد تزوّج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى أن لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد. ولم ينقضِ شهر العسل حتى ملّها متضجراً وعاد إلى مسامرة بنات الهوى، وتركها في هذا القصر مثلما يترك السكّير جرّة خمر فارغة، فبكت وتوجّعت لأوّل وهلة، ثمّ تصبّرت وسلت سلوّ من عرف خطأه، وعلمت أن دموعها هي أثمن من أن تهرق على خسارة رجل مثل زوجها. وهي الآن مشغولة عن كلّ شيء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث، تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذي يغضّ الطرف عنها لأنها تغضّ الطرف عنه.. ثمّ انظر إلى ذلك البيت المحاط بالحديقة الغنّاء، فهو مسكن رجل ينتمي إلى أسرة شريفة حكمت البلاد مدّة طويلة، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها إلى التواني والكسل. وقد اقترن هذا الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنّها غنيّة جداً، وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها

واتخذ له خليلة حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً. وهي الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها، وتكحيل عينيها، وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير، وتزيين قامتها بالأطالس والحرير، لعلّها تحظى بنظرة من أحد زائريها، لكنّها لا تحصل إلاّ على نظرات شبحها في المرآة.. ثمّ انظر إلى ذلك المنزل الكبير المزيّن بالنقوش والتماثيل، فهو منزل امرأة جميلة الوجه، خبيثة النفس، قد مات زوجها الأوّل فاستأثرت بأمواله وأملاكه ثمّ اختارت من بين الرجل رجلاً ضعيف الجسم والإرادة واتخذته بعلاً لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها. وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتصّ من الزهور ما كان حلواً ولذيذاً. وانظر إلى تلك الدار ذات الأروقة الوسيعة والقناطر البديعة، فهي مسكن رجل مادي الميول، كثير المشاغل والمطامع، وله زوجة كلّ ما في جسدها جميل وحسن، وكلّ ما في روحها حلو ولطيف، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقّة المعاني، فهي قد كُوّنت لتعيش بالحب وتموت به. ولكنّها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل

بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة، وهي الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيّدة، وتضمحّل على مهل كالرائحة الزكيّة أمام العاصفة، وتفنى حبّاً بشيء جميل تشعر به ولا تراه، وتصبو حنيناً إلى معانقة الموت لتتخلّص من حياتها الجامدة وتتحرّر من عبودية رجل يصرف الأيّام بجمع الدنانير والليالي بعدّها ويصرّ أسنانه مجدّفاً على الساعة التي تزوّج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته.. ثمّ انظر إلى ذلك البيت المنفرد بين البساتين، فهو مسكن شاعر خيالي سامي الأفكار، روحي المذهب، له زوجة غليظة العقل، خشنة الطباع، تسخر بأشعاره لأنّها لا تفهمها، وتستهزئ بأعماله لأنّها غريبة، وهو الآن مشغول عنها بمحبّة امرأة أخرى متزوّجة تتوقّد ذكاء وتسيل رقّة وتولّد في قلبه النور بانعطافها وتوحي إليه الأقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها.

وسكتت السيدة وردة هنيهة وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأن نفسها قد تعبت من التجول في مخادع تلك المنازل الخفيّة، ثمّ عادت تقول بهدوء: هذه هي القصور التي لم أرضَ أن أكون من سكّانها. هذه هي

القبور التي لم أرد أن أُدفن حية طيّ لحودها. هؤلاء هم الناس الذين تخلّصــــت من عوائدهم وخلعت عني جامعتهم. هؤلاء هم المتزوّجون الذين يقترنون بالأجســاد ويتنافرون بالروح، ولا شــفيع بهم أمام الله ســوى جهلهم ناموس الله. أنا لا أدينهم الآن بل أشفق عليهم. ولا أكرههم بل أكره اســتســلامهم عفواً إلى الرياء والكذب والخباثة. ولم أكشــف أمامك قلوبهم وأســرار معيشــتهم لأنّني أحبّ الاغتياب والنميمة. بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالأمس مثلهم فنجوت. وأُبين لك معيشة بشر يقولون عنّي كل كلمة شرّيرة، لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي، وخرجت عن ســبل خداعهم المظلمة وحوّلت عيني نحو النور حيث الإخلاص والحق والعدل. وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية، لأن البشر لا ينفون إلاّ من تمرّدت روحه الكبيرة على الظلم والجور. ومن لا يؤثر النفي على الاســتعباد لا يكون حراً بما في الحريّة من الحق والواجب. أنا كنت بالأمس مثل مائدة شهية، وكان رشيد بك يقترب منّي عندما يشعر بحاجة إلى الطعام، أمّا نفسانا فتظلان بعيدتين كخادمين ذليلين. ولمّا رأيت المعرفة كرهت الاستخدام، وقد حاولت الخضوع لما يدعونه

نصـيباً فلم أقدر، لأن روحي أبت أن أصـرف العمر كلّه راكعة أمام صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة ودعته الشريعة. فكسرت قيودي لكنّني لم أُلقها عنّي حتى سمعت الحبّ منادياً ورأيت النفس متأهّبة للمسير.

فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الأسير من سجنه تاركة خلفي الحلى والحلل والخدم والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح وأنا عالمة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب، لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وأرتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعدي، ساكبة حشاشتي من أجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة. إن السماء لا تريد أن أصرف العمر صارخة متوّجعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينقضي هذا النهار. إن السماء لا تريد أن يكون الإنسان تعساً لأنّها وضعت في أعماقه الميل إلى السعادة، لأنّه بسعادة الإنسان يتمجّد الله..

هذه هي حكايتي أيها الرجل، و هذا احتجاجي أمام السماء والأرض، وأنا أردّده وأترنّم به والناس يغلقون آذانهم ولا يسمعون لأنّهم يخشون ثورة أرواحهم، ويخافون

أن تتزعزع أسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم.

هذه هي العقبة التي ســـرت عليها حتى بلغت قمّة ســـعادتي، ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفت روحي أمام العرش الأعلى بلا خوف ولا وجل، بل بفرح وأمل، وانحلّت لفائف ضـــميري أمام الديّان الأعظم وبانت نقيّة كالثلج، لأنّني لم أفعل غير مشـيئة النفس التي فصـلها الله عن ذاتـه، ولم أتبع غير نـداء القلـب وصـــدى أغـاني الملائكة.

هذه هي روايتي التي يحسبها سكّان بيروت لعنة في فم الحياة وعلّة في جسم الهيئة الاجتماعية. ولكنّهم سوف يندمون عندما تنبّه الأيّام محبّة المحبّة في قلوبهم المظلمة، مثلما تسـتنبت الشـمس الزهور من بطن الأرض المملوء من بقايا الأموات فيقف إذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السـلام قائلاً: ههنا رقدت وردة الهاني التي حرّرت عواطفها من عبودية الشـرائع البشـرية الفاسـدة لتحيا بنـاموس المحبـة الشـــريفـة. وحوّلـت وجههـا نحو الشمس كيلا ترى ظلّ جسدها بين الجماجم والأشواك.

ولم تنتـهِ الســيدة وردة من كلامهـا حتى فُتح البـاب ودخل علينا فتى نحيل القوام، تنسكب من عينيه أشعة

سحرية وتسيل على شفتيه ابتسامة لطيفة. فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلّي وقدّمته إلي بعد أن لفظت اسمي مذيّلاً بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً بنظرة معنوية، فعرفت أنه ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله.

ثمّ جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كلّ منّا بمعرفة رأي الآخر فيه. حتى إذا مرّت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس إلى الملإ الأعلى، نظرت إليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أره قطّ، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت سرّ احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الأفراد المتمردين على شرائعها قبل أن تستفحص دواعي تمردهم. رأيت روحاً واحدة سماوية متمثّلة أمامي بجسدين يجملهما الشباب ويسربلهما الاتحاد وقد وقف بينهما إله الحب باسطاً جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم. وجدت التفاهم الكلّي من وجهين شفّافين ينيرهما الإخلاص ويحيط بهما الطهر. وجدت لأوّل مرة في حياتي طيف السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يرذلهما الدين وتنبذهما الشريعة.

وبعد هنيهة وقفت وودّعتهما مظهراً بغير الكلام تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحبّ والوفاق، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكّراً بحديثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادئ والنتائج، ولكنني لم أبلغ أطراف ذلك الحب حتى تذكرت رشيد بك نعمان. فتمثلت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي: هو تعس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء إذا وقف أمامها متظلّماً شاكياً وردة الهاني؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتّبعت حرّيّة نفسها، أم هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل أن يستميل روحها بالمحبّة؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم؟ ومن هو المجرم ومن هو البريء يا ترى؟ ثمّ عدت قائلاً لذاتي مستفتياً أخبار الأيام مستقصياً حوادثها: كثيراً ما أباح الغرور للنساء أن يتركن رجالهنّ الفقراء ويتعلّقن بالرجال الأغنياء، لأن شغف المرأة ببهرجة الملابس ونعومة العيش يعمي بصيرتها ويقودها إلى العار والانحطاط. فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غني مفعم بالحلى والحلل

والرياش والخدم وذهبت إلى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صفّ من الكتب القديمة؟ وكثيراً ما يميت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلها مللاً وتضجّراً وتطلب ملذّات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطاً وأقل شرفاً. فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذّات الجسديّة عندما أعلنت استقلالها على رؤوس الأشهاد وانضمّت إلى فتى روحي الميول، وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسها سرّاً في منزل زوجها من هيام الفتيان الذين يستميتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها؟ وردة الهاني كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها. وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الإنسانية وتنفيها الشريعة.

همستُ تلك الكلمات في مسامع الأثير ثمّ قلت مستدركاً: ولكن أيسوغ للمرأة أن تشتري سعادتها بتعاسة بعلها؟ فأجابتني نفسي قائلة: وهل يجوز للرجل أن يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيداً؟

وظللت سائراً وصوت السيّدة وردة يتموّج في مسامعي حتى بلغت أطراف المدينة والشمس قد مالت إلى الغروب

وابتدأت الحقول والبســـاتين تتشّـــح بنقاب الســـكينة والراحة، والطيور تنشـــد صـــلاة المســـاء. فوقفت متأمّلاً ثمّ تنهّدت قائلاً: أمام عرش الحريّة تفرح هذه الأشجار بمداعبة النســـيم وأمام هيبتها تبتهج بشـــعاع الشـــمس والقمر. على مسامع الحريّة تتناجى هذه العصافير وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي. في فضاء الحريّة تسكب هذه الزهور عطر أنفاســـها وأمام عينيها تبتســـم لمجيء الصـــباح. كلّ ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموســـه يســـتمدّ مجد الحريّة وأفراحها. أمّا البشر فمحرومون من هذه النعمة لأنّهم وضـــعوا لأرواحهم الإلهية شـــريعة عالمية محدودة، وســـنّوا لأجســـادهم ونفوســـهم قانوناً واحداً قاســـياً، وأقاموا لميولهم وعواطفهم ســـجناً ضـــيّقاً مخيفاً، وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً. فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا متمرّد شرّير خليق بالنفي، وساقط دنس يستحق الموت.. ولكن هل يظلّ الإنسان عبداً لشـــرائعه الفاســـدة إلى انقضـــاء الدهر أم تحرّره الأيّام ليحيا بالروح وللروح؟ أيبقى الإنســـان محدّقاً إلى التراب أم يحوّل عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظل جسده بين الأشواك والجماجم؟

صراخ القبور

- ١ -

تربّع الأمير على منصّة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعّدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار. وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرماح. ووقف الناس أمامه بين متفرّج أتى به حبّ الاستطلاع، ومترقّب ينتظر الحكم في جريمة قريبه، وجميعهم قد حنوا رقابهم وخشعوا بأبصارهم وأمسكوا أنفاسهم كأنّ في عيني الأمير قوّة توعز الخوف وتوحي الرعب إلى نفوسهم وقلوبهم. حتى إذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدينونة، رفع الأمير يده وصرخ قائلاً: أحضروا المجرمين أمامي واحداً واحداً وأخبروني بذنوبهم

ومعاصيهم.

ففتح باب السجن وبانت جدرانه المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكّيه متثائباً، وتصاعدت من جوانبه قلقلة القيود والسلاسل متآلفة مع أنين الحبساء ونحيبهم. فحوّل الحاضرون أعينهم وتطاولت أعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر.

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف الساعدين يتكلّم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزّة في النفس وقوة في القلب. وأوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلاً إلى الوراء. فحدق إليه الأمير دقيقة ثم سأل قائلاً: ما جريمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع كأنّه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة؟

فأجاب رجل من أعوانه قائلاً:

هو قاتل شرّير قد اعترض بالأمس قائداً من قوّاد الأمير وجندله صريعاً.. إذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى، وقد قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده.

فتحرّك الأمير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً: أرجعوه إلى الظلمة وأثقلوا جسده بالقيود، وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحدّ سيفه ثمّ اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة نتانتها إلى أنوف أهله ومحبيه.

أرجعوا الشاب إلى السجن والناس يتبعونه بنظرات الأسف والتنهيدات العميقة لأنّه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قوي البنية.

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبيّة جميلة الوجه ضعيفة الجسد قد وشّح معانيها اصفرار اليأس والقنوط. وغمرت عينيها العبرات وألوت عنقها الندامة والحسرة.

فنظر إليها الأمير قائلاً: وما فعلت هذه المرأة المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً: هي امرأة عاهرة فاجأها بعلها ليلاً فوجدها بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد أن فرّ أليفها هارباً. فحدق الأمير إليها وهي مطرقة

خجلاً ثمّ قال بشــدة وقســاوة: أرجعوها إلى الظلمة ومدّدوها على فراش من الشــوك لعلّها تذكر المضـــجع الذي دنّســته بعيبها، واسـقوها الخل ممزوجاً بنقيع العلقم عســاها تذكر طعم القبل المحرّمة، وعند مجيء الفجر جرّوها عارية إلى خارج المدينة وارجموها بالحجارة واتركوا جســدها هناك لكي تتنعّم بلحمانه الذئاب وتنخر عظامه الديدان والحشرات.

توارت الصبيّة بظلمة السجن والحاضرون ينظرون إليها بين معجب بعدل الأمير، ومتأسّــف على جمال وجهها الكئيب ورقّة نظراتها المحزنة.

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضــعيفاً يســحب ركبتيه المرتعشــتين كأنّهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي، ويلتفت جزعاً إلى كلّ ناحية، ومن نظراته الموجعة تنبعث أخيلة البؤس والفقر والتعاسة.

فالتفت الأمير نحوه وقال بلهجة الاشـمئزاز: ما ذنب هذا القذر الواقف كالميت بين الأحياء؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً: هو لص ســارق قد دخل الدير ليلاً فقبض عليه الرهبان الأتقياء ووجدوا طيّ أثوابه

آنية مذابحهم المقدّسة.

فنظر إليه الأمير نظرة النسر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلاً: أنزلوه إلى أعماق الظلمة وكبّلوه بالحديد، وعند مجيء الفجر جرّوه إلى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتّان واتركوا جسده معلّقاً بين الأرض والسماء، فتنثر العناصر أصابعه نثراً وتذري الرياح أعضاءه نتفاً.

أرجعوا اللص إلى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين: كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدّسة؟

ونزل الأمير عن كرسي القضاء فاتّبعه العقلاء والمتشرعون وسار الجند خلفه وأمامه وتبدّد شمل المتفرّجين، وخلا ذلك المكان إلاّ من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة كالأخيلة على الجدران.

جرى كلّ ذلك وأنا واقف هناك وقوف المرآة أمام الأشباح السائرة، مفكّراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر، متأمّلاً بما يحسبه الناس عدلاً متعمقاً بأسرار الحياة باحثاً عن معنى الكيان، حتى إذا ما تضعضعت

أفكاري مثلما تتوارى خطوط الشـــفق بالضــــباب خرجت من ذاك المكان قائلاً لذاتي: الأعشــــاب تمتص عناصـــر التراب. والخروف يلتهم الأعشــــاب. والذئب يفترس الخروف، ووحيد القرن يقتل الذئب، والأسد يصيد وحيد القرن، والموت يفني الأســـد. فهل توجد قوّة تتغلّب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلاً سرمدياً!.. أتوجد قوة تحوّل جميع هذه الأســـباب الكريهة إلى نتائج جميلة؟ أتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضـــمّها إلى ذاتها مبتســـمة مثلما يُرجع البحر جميع الســـواقي إلى أعماقه مترنّماً؟ أتوجد قوة توقف القاتل والمقتول، والزانية وخليلها، والســـارق والمســـروق منه أمام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير؟

ـ ٢ ـ

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وســـرت بين الحقول حيث تبيح السكينة للنفس ما تسرّه النفس، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضـــيّقة والمنازل المظلمة، ولما بلغت طرف الوادي التفتّ

فإذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طوراً، وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها. فتقدمت قليلاً مستطلعاً فرأيت أمامي جثة رجل معلقة على شجرة عالية، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رُجمت بها، وجثة فتى غارقة بالدماء المجبولة بالتراب وقد فصل رأسها عنها.

وقفت وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم، ونظرت فلم أرَ سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث الملطّخة بالدماء، وأصغيت فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر.

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالأمس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم في قبضة الموت.

ثلاثة أساؤوا بعرف البشر إلى الناموس فمدّت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة.

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنّهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة أمواتاً لأنّها قوية.

رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم، وعندما فتك به الأمير قال الناس: هذا أمير عادل.

ورجل حاول أن يســـلب الدير فقال الناس هذا لصّ شرّير، وعندما سلبه الأمير حياته قالوا: هذا أمير فاضل.

وامرأة خـانـت بعلهـا فقـال النـاس هي زانيـة عـاهرة، ولكن عندما ســـيّرها الأمير عارية ورجمها على رؤوس الأشهاد قالوا: هذا أمير شريف.

سفك الدماء محرّم، ولكن من حلّله للأمير؟

سـلب الأموال جريمة، ولكن من جعل سـلب الأرواح فضيلة؟

خيانة النســاء قبيحة، ولكن من صـيّر رجم الأجســاد جميلاً؟

أنقابل الشــرّ بشــرّ أعظم ونقول هذه هي الشــريعة. ونقاتل الفساد بفساد أعمّ ونهتف هذا هو الناموس. ونغالب الجريمة بجريمة أكبر ونصرخ هذا هو العدل؟

أما صـــرع الأمير عدوّاً في غابر حياته؟ أما ســـلب مالاً أو عقاراً من أحد تابعيه الضـــعفاء؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسـها؟ هل كان معصـوماً عن هذه المحرّمات فجاز له إعدام القاتل وشنق السارق ورجم الزانية؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة:

أملائكة نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كلّ ما تصل إليه أيديهم؟

ومن قطع رأس هذا القاتل! أأنبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلّوا؟

ومن رجم هذه الزانية! أنسّاك طاهرون أتوا من صوامعهم أم بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين بستائر الظلام؟

الشريعة ــــ وما هي الشريعة؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأيّ بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟

وظلّت هذه الأفكار تتزاحم على فكرتي وتتساهم عواطفي حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني، فنظرت وإذا بصبية قد ظهرت من بين الأشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحذرة متلفتة بخوف إلى كل ناحية. حتى إذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه وطوّقته بزنديها المرتجفتين، وأخذت تستفرغ الدموع من

عينيها، وتلامس شــعره الجعدي بأطراف أصــابعها وتنتحب بصـــوت عميق جارح خارج من صـــميم الكبد. ولما نهكها البكاء وغلبتها الحســـرات. أســـرعت تحفر التراب بيديها. حتى إذا ما حفرت قبراً واســـعاً جرّت إليه الفتى المصـــروع ومدّدته على مهل ووضـــعت رأســـه المضـــرج بالدماء بين كتفيه، وبعد أن غمرته بالتراب غرســـت نصـــل الســـيف الذي قطع عنقه على قبره، وإذ همّمت بالانصـــراف، تقدّمت نحوها فأجفلت وارتعشـــت خوفاً ثمّ أطرقت والدمع الســـخين يتســـاقط من مقلتيها كالمطر وقالت متنهّدة: اشـكني إلى الأمير إن شئت فخير لي أن أموت وألحق بمن خلّصني من قبضة العار من أن أترك جســده طعاماً لقشــاعم الطير والوحوش الكواســر. فأجبتها قائلاً: لا تخافي مني أيتها المســكينة، فأنا قد ندبت حظّ فتاكِ قبلك. بل خبريني كيف أنقذك من قبضة العار.

فقالت والغصـص تقطع صـوتها: جاء قائد الأمير إلى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية، ولما رآني نظر إليّ نظرة استحسان مخيفة، ثمّ فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها، فقبض عليّ ليقتادني قهراً إلى صرح الأمير بدلاً من الذهب،

فاستر حمته بدموعي فلم يحفل، واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم، فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلّصني من بين يديه القاسيتين، فاستشاط غضباً وهمّ أن يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلّقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي، ولكبر نفسه لم يفر هارباً كالقتلة المجرمين، بل لبث واقفاً بقرب جثّة القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه إلى السجن مكبّلاً بالقيود.

قالت هذا، ونظرت إليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير الشجون وولّت مسرعة ورنّات صوتها الموجعة تولد بين تموّجات الأثير اهتزازاً وارتعاشاً.

وبعد هنيهة نظرت فرأيتُ فتى في ربيع العمر يتقدّم ساتراً وجهه بأثوابه، حتى إذا ما بلغ المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها أعضاءها العارية، وأخذ يحفر الأرض بخنجر كان معه ثمّ حملها بهدوء وواراها التراب ساكباً مع كلّ حفنة قطرة من أجفانه. ولما انتهى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف. وإذ همّ بالذهاب

أوقفته قائلاً: ما نسـبة هذه المرأة السـاقطة إليك حتى سـعيت مخالفاً إرادة الأمير ومخاطراً بحياتك لكي تحمي جسدها المرضوض من طيور السماء الجوارح؟

فنظر إليّ وأجفانه المقرحة من البكاء والسـهر تتكلّم عن شـدّة حزنـه ولوعتـه، وبصـوت مخنوق ترافقـه التنهيدات الأليمة قال: أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رُجمت من أجله ـــ أحببتُها وأحبتني مذ كنّا صغيرين نلعب بين المنازل. نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيّداً قويّاً نخدمه بعواطف قلبينا فيستميلنا إليه ونهابه بسـرائر روحينا فيضمّنا إلى صدره.

ففي يوم وقد كنت غائباً عن المدينة زوّجها والدها كرهاً من رجل تكرهه، ولما رجعت وسـمعت بالخبر تحوّلت أيّامي إلى ليل طويل حالك، وصـارت حياتي نزاعاً مرّاً متواصـلاً. وبقيت أصـارع عواطفي وأغالب ميول نفسـي حتى تغلّبت عليّ وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً أعمى. فذهبت إلى حبيبتي سراً، وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها، فوجدتها منفردة تندب حظّها وترثي أيامها. فجلسـت والسـكينة حديثنا والعفاف ثالثنا.

ولم تمرّ ســـاعة حتى دخل زوجها فجأة، ولما رآني أوعزت إليه نياته القذرة فقبض على عنقها الأملس بكفّيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته: تعالوا وانظروا الزانية وعشيقها. فهرول الجيران ثمّ جاء الجند مستطلعين الخبر فأسلمها إلى أيديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزقة الثياب. أما أنا فلم يمسني أحد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاســدة تعاقب المرأة إذا ســقطت، أما الرجل فتسامحه.

وعاد الشاب نحو المدينة ساتراً وجهه بأثوابه ولبثت أنا ناظراً متأملاً متنهداً، وجثة اللص المشــنوق ترتجف قليلاً كلّما هزّ الهواء أغصــان الشــجرة كأنها تســترحم بحراكها أرواح الفضـــاء لتهبط وتمدّدها على صــــدر الأرض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب.

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً بالية ووقفت بقرب المشــنوق تقرع صـــدرها باكية، ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على الأرض ســقوط الثوب البليل. فنزلت المرأة وحفرت قبراً بجانب القبرين ووضعته فيه. وبعد أن غمرته بالتراب

أخذت قطعتين من الخشــب وصــنعت منهما صــليباً وغرسته فوق رأسه. ولما تحوّلت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفتها قائلاً: ما غرّكِ أيتها المرأة فجئت تدفنين لصــاً سارقاً؟

فنظرت إليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت: هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي. خمسة أطفال يتضوّرون جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصـغرهم رضـيع لم يفطم.. لم يكن زوجي لصّـاً بل كان زارعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان إلاّ على رغيف نتقاســمه عند المســاء ولا تبقى منه لقمة إلى الصباح..

مذ كان فتى وهو يســـقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم سـاعديه في بسـاتينه. ولما ضـعف وانتهبت أعوام العمل قواه وراودت الأمراض جسده أبعدوه قائلين: لم يعد الدير محتاجاً إليك فاذهب الآن وعندما يشبّ أبناؤك ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل. فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين. فذهب يطلب عملاً في المدينة

وعاد مطروداً لأن سكّان تلك القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء. ثم جلس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس إليه بل كانوا يمرون به قائلين: الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل.

ففي ليلة، وقد برح العوز بنا حتى صار أطفالنا يتلوّون جوعاً على التراب، والرضيع بينهم يمصّ ثديي ولا يجد لبناً، تغيّرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلّة الحقول وخمر الكروم، وحمل زنبيلاً من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع إلينا. لكنّه لم يسر بضع خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً، وعندما جاء الصباح أسلموه إلى الجند قائلين: هو لصّ شرير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية. فاقتاده الجند إلى السجن ثم إلى المشنقة ليملأوا أجواف العقبان من جسده لأنّه حاول أن يملأ أجواف صغاره الجياع من فضلات الغلّة التي جناها بأتعابه إذ كان خادماً للدير.

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطّع أشباح محزنة تتصاعد وتتسارع إلى كلّ ناحية كأنّها أعمدة من

الدخان يتلاعب بها الهواء.

* * *

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤبّن ارتج عليه وانعقد لسانه لوعة، فانسكب دمعه متكلّماً عن عواطفه. وحاولت التفكّر والتأمّل فعصتني نفسي لأن النفس كالزهرة تضمّ أوراقها أمام الظلمة، ولا تعطي أنفاسها لأخيلة الليل.

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلّم انبثاق الضباب من خلايا الأودية ويتموّج حول مسامعي ليوحي إليّ الكلام.

وقفت ساكتاً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى كواسر الغاب.

وقفت متنهداً، ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحرّكت وتركت أماكنها وزحفت كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده، وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه.

وقفت ناظراً، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة – قبر فتى

دافع بحياته عن شــرف عذراء ضــعيفة وأنقذها من بين أظفار ذئب كاسر، فقطعوا عنقه جزاء شجاعته، وقد أغمدت تلك الصــبية سـيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلّم أمام وجه الشـــمس عن مصـــير الرجولة في دولة الحيف والغباوة.

وقبر صـــبيّة لامس الحب نفســـها قبل أن تغتصـــب المطامع جسدها، فرجمت لأن قلبها أبى إلا أن يكون أميناً حتى الموت. وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسـدها الهامد لتتكلّم بذبولها وفنائها البطيء عن مصـير النفوس التي يقـدسـها الحـبّ بين قوم أعمتهم المـادة وأخرسهم الجهل.

وقبر فقير بائس أوهت ســـاعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعيضـوا عنهما بسـواعد غيره. فطلب الخبز لصـــغاره بالعمل فلم يجده، ثمّ رجاه بالتســـوّل فلم ينله، وعندما دفعه اليأس إلى اســـترجاع قليل من الغلّة التي جمعها بأتعابه وعرق جبينه قبضـــوا عليه وفتكوا به. وقد وضعت أرملته صليباً على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم الســماء على ظلم رهبان يحوّلون تعاليم الناصــري إلى

سـيوف يقطعون بها الرقاب ويمزّقون بحدودها السنينة أجساد المساكين والضعفاء.

وتوارت الشمس إذ ذاك وراء الشفق كأنّها ملّت متاعب البشر وكرهت ظلمهم. وابتدأ المساء يحوك من خيوط الظلّ والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة، فرفعت عينيّ إلى العلاء وبسطت يديّ نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي: هذا هو سيفك أيّتها الشجاعة فقد أُغمد بالتراب. وهذه هي زهورك أيّها الحبّ فقد لفحتها النيران. وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل.

مضجع العروس

ـ ١ ـ

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنّئون الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح، ويسير حولهما الفتيان المترنّمون بالأهازيج والصبايا المنشدات أغاني السرور.

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والأواني المتلمّعة والرياحين العطرة، فاعتلى العروسان مقعداً مرتفعاً وجلس المدعوون على الطنافس الحريريّة والكراسي المخمليّة، حتى غصّت تلك القاعة الواسعة بأشكال الناس. وسعى الخدّام بآنية الشراب فتصاعدت رنّات الكؤوس متآلفة مع هتاف الغبطة. ثمّ جاء الموسيقيون وجلسوا يسكرون النفوس بأنفاسهم السحريّة ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود

وتنهيدات الناي وحفيف الدفوف.

ثمّ قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق مقاطع اللحن مثلما تتابع الأغصان الليّنة مجاري هبوب النسيم وتنثني طيات أثوابهن الناعمة كأنّها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر. فشخصت إليهن الأبصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهنّ أرواح الفتيان وتفطرت لجمالهن مرائر الشيوخ. ثمّ مال الجميع يستزيدون من الشراب ويغمرون ميولهم بالخمور. فنمت الحركة وعلت الأصوات واضطربت القلوب وأصبح ذلك المنزل بكلّ ما فيه كقيثارة مقطّعة الأوتار في يد جنيّة غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها أنغاماً جامعة بين التناسق والالتباس: فهنا فتى يبوح بسرائر حبه لفتاة أولاها الجمال تيهاً ودلالاً. وهناك شاب يستعد لمحادثة حسناء مُستحضراً إلى حافظته أعذب الألفاظ وأرقّ المعاني. وهنالك كهل يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة إلى المنشدين إعادة أغنية ذكرته بأيام صبابته. في هذه القرنة امرأة تغامز بأطراف أجفانها رجلاً ينظر بمودة إلى سواها. وفي تلك الزاوية سيدة قد بيّض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهن عروسة لوحيدها. وبجانب تلك

النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل مستسلمون إلى تيار الغبطة والسرور متناسون حوادث الأمس منصرفون عن مآتي الغد منعكفون على استثمار دقائق الحاضر.

كان يجري كلّ ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين إلى هذا المشهد مثلما ينظر الأسير اليائس إلى جدران سجنه السوداء. وتتلفّت بين الآونة والأخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغتبطين انفراد الطائر الجريح عن سربه، مبكّلاً زنديه على صدره كأنّه يحول بهما بين قلبه والفرار، محدقاً إلى شيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأنّ ذاته المعنويّة قد انفصلت عن ذاته الحسيّة وسبحت في الخلاء متبعة أشباح الدجى.

انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت ثورة، واختمرت أدمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلّب السكر على حواسه وطاف يتكلّف اللطف والرقة بين

الناس.

في تلك الدقيقة أومأت العروس إلى صبية أن تقترب منها. فاقتربت وجلست بجانبها. وبعد أن تلفّتت العروس إلى كلّ ناحية تلفت جازع يريد أن يفشي سرّاً خفيّاً هائلاً لزّت إلى الصبية وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش: أستحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمن نفسينا مذ كنّا صغيرتين. أستحلفك بكلّ ما هو عزيز لديك في هذه الدنيا. أستحلفك بمخبآت صدرك. أستحلفك بالحبّ الذي يلامس أرواحنا ويجعلها شعاعاً. أستحلفك بأفراح قلبك وأوجاع قلبي أن تذهبي الآن إلى سليم وتطلبي إليه أن ينزل خفية إلى الحديقة وينتظرني هناك بين أشجار الصفصاف. تضرّعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي. ذكّريه بالأيّام الغابرة، توسّلي إليه باسم الحب، قولي له هي تعيسة عمياء، قولي له هي مائتة تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام، قولي له هي هالكة شقيّة تريد أن ترى نور عينيك قبل أن تختطفها نار الجحيم، قولي له هي خاطئة تريد أن تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك، أسرعي إليه وابتهلي عني أمامه ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لأن الخمور قد سدّت

آذانهم وأعمت بصائرهم.

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده وأخذت تستعطفه هامسة في أُذنه كلمات رفيقتها ودلائل الودّ والإخلاص بادية على ملامحها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة. حتى إذا ما انتهت من كلامها نظر إليها نظرة ظامئ يرى الكأس في قبّة الفلك، وبصوت منخفض تخاله آتياً من أعماق الأرض أجابها قائلاً: سأنتظرها في الحديقة بين أشجار الصفصاف.

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج إلى الحديقة.

ولم تمضِ بضع دقائق حتى قامت العروس واتبعته مختلسة خطواتها بين رجال فتنتهم ابنة الكروم ونساء شغلت قلوبهن صبابة الفتيان. ولما بلغت الحديقة الموشاة بأثواب الليل أسرعت ملتفتة إلى الوراء. ومثل غزال جازع هارب إلى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدّمت نحو أشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى. ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه وطوّقت عنقه بزنديها وحدقت إلى عينيه ثم قالت والألفاظ تتسارع من شفتيها بسرعة دموع

أجفانها: اســـمعني يا حبيبي. اســـمعني جيداً. ها قد ندمت على جهالتي وتســـرعي. قد ندمت يا ســـليم حتى سـحقت الندامة كبدي. أنا أحبّك ولا أحبّ سـواك وسـوف أحبّـك إلى منتهى العمر. قـد أخبروني بـأنـك ســـلوتني وهجرتني وتعلّقت بهوى غيري. أخبروني بكل ذلك يـا سـليم وسـمموا قلبي بألسـنتهم ومزّقوا صـدري بأظافرهم وملأوا نفســـي بكذبهم. قد أخبرتني نجيبة بأنك ســـلوتني وكرهتني وانشـــغفت بحبهـا. قـد ظلمتني تلـك الخبيثـة واحتالت على عواطفي لكي أرضـــى بنســـيبها عريســـاً، فرضيته يا سليم ولا عريس لي سواك.

والآن، والآن قد رفع الغشـــاء عن عيني فجئت إليك. قد خرجت من هذا المنزل ولن أعود إليه. قد جئت لكي أضـمّك بذراعي ولا توجد قوة في هذا العالم ترجعني إلى ذراعي الرجل الذي زففت إليه كرهاً ويأســـاً. قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلاً، وتركت الوالد الذي أقامه القدر وليّاً، وتركت الزهور التي ضـــفرها الكاهن إكليلاً، وتركت الشـــرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً. قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة وأتيت لأتبعك إلى أرضٍ بعيدة، إلى

أقاصـي العالم، إلى مكامن الجن، إلى قبضـة المـوت. تعالَ نسرع يا سليم من هذا المكان متسترين بوشاح الليل. هلمّ نسير إلى الساحل ونركب سفينة تحملنا إلى بلاد بعيدة مجهولة، تعالَ نمشـي الآن فلا يجيء الفجر إلاّ ونحن في مـأمن من أيـدي العـدو. انظر، انظر هـذه الحلـى الـذهبيـة وهذه القلائد والخواتم الثمينة، وهذه الجواهر النفيسـة، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء.. لماذا لا تتكلّم يـا سـليم؟ لمـاذا لا تنظر إليّ؟ لمـاذا لا تقبّلنـي؟ أسـامع أنت صـراخ قلبي وعويل نفسـي؟ ألا تصـدّق أنّي هجرت عريسـي وأبي وأمي وجئت بأثواب العرس لكي أهرب معك؟ تكلّم أو هلمّ نسـرع فهذه الدقائق أثمن من حبّات الألماس وأغلى من تيجان الملوك.

كانت العروس تتكلّم وفي صـوتها أعذب من همس الحياة وأمرّ من عويل الموت وألطف من حفيف الأجنحة وأعمق من أنين الأمواج ـــ نغمة صوتها نبضاتها بين اليأس والأمل، واللذّة والألم، والفرح والشقاء، وكلّ ما في صدر المرأة من الميول والعواطف.

أمّا الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحبّ

والشرف: ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً، والظلام نوراً، وذلك الشـــرف الذي يقف أمام النفس، ويثنيها عن رغائبها ومنازعها. ذلك الحب الذي ينزله الله على القلب، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ.

وبعد أحيان خرســاء هائلة شــبيهة بالأجيال المظلمة التي تتمايل فيها الأمم بين النهوض والاضـــمحلال، رفع الشــاب رأســه وقد تغلّب شـرف نفســه على ميلها وحوّل عينيه عن الصــبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء: ارجعي أيتها المرأة إلى ذراعي عريسك فقد قضــي الأمر ومحت اليقظة ما صورته الأحلام ــــــــ أسرعي إلى أحضـان المســرّات قبل أن تراك أعين الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها ليلة العرس مثلما خانت حبيبها أيّام البعاد.

فارتعشـــت العروس لهذه الكلمات وتململت كزهرة ذابلة أمام الريح ثمّ قالت متوجعة: لا أعود إلى هذا المنزل وبي رمق من الحياة. قد خرجت منه إلى الأبد. قد تركته وكلّ من فيه مثلما يترك الأسـير أرض المنفى. فلا تبعدني عنك ولا تقل إنني خائنة، لأن يد الحب التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي إلى

مشـــيئة العريس. ها قد طوّقت ذراعي حول عنقك فلا تحلهما القوات وقرّبت نفسي إلى نفسك فلا يفرّقهما الموت.

فقال الشـــــاب محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلّفاً إظهار المقت والاشـــمئزاز: ابتعدي عني أيتها المرأة فقد ســلوتك، نعم ســلوتك وكرهتك وتعلقت بهوى غيرك، فلم يقل الناس غير الصـــحيح. هل ســـمعت ماذا أقول؟ قد ســلوتك حتى نســيت وجودك وكرهتك حتى أبت نفســي مرآك، فابتعدي عني ودعيني لأذهب إلى سبيلي، وعودي إلى عريسك وكوني له زوجة أمينة.

فقالت الصــبية متفجعة: لا.. لا أصــدق كلامك، فأنت تحبني وقد قرأت معنى الحب في عينيك وشـــعرت بملامسـه عندما لمست جسدك. أنت تحبني وتحبني مثلما أحبك، فأنا لا أترك هذا المكان إلا بجانبك ولن أدخل هذا المنزل وفي نفســـي بقية من الإرادة. قد جئت لكي أتبعك إلى آخر الأرض، فسر أمامي وارفع يدك واهرق دمي.

فقال الشـــاب وقد رفع صـــوته عن ذي قبل: اتركيني أيتها المرأة وإلا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة أولئك الناس المدعوين إلى أفراح عريســـك وأريتهم

عارك وجعلتك مضــغة مُرة في أحناكهم ومثلاً قبيحاً على ألســنتهم وأوقفت نجيبة التي أحبها قلبي تســخر بك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك.

قـال هذا وأمســك بذراعها ليبعدها عنه فتغيّرت ملامحها وأبرقت عيناها وتحوّلت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجّع إلى الغضب والقساوة وصـارت كلبوة فقدت أشبالها أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثمّ صرخت: من هي التي تتمتّع بعدي وأي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي!

لفظت هذه الكلمات وانتشــلت من بين أثوابها خنجراً سنيناً وأغمدته بصدره بسرعة البرق، فهوى وسقط على الأرض كغصن قصفته العاصفة، فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماً، ففتح عينه المغمورتين بظلّ الموت وارتعشــت شــفتاه وخرجت هذه الكلمات مع أنفاســه الضــعيفة: اقتربي الآن يا حبيبتي، اقتربي يا ليلى ولا تتركيني، الحياة أضعف من الموت والموت أضعف من الحب. اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك. اسمعي رنين كؤوسهم يا حبيبتي. لقد أنقذتني يا ليلى من قساوة

هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس، فدعيني أقبّل اليد التي كسرت قيودي. قبّلي شفتيّ. قبّلي شفتيّ اللتين تكلّفتا الكذب وأخفتا أسـرار قلبي. أغمضي أجفاني الذابلة بأصـابعك المغموسـة بدمي. وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر يأساً وحسداً. قد أحببتك يا ليلى ولم أحبّ سواك ولكنّني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسـك. قبّليني يا حبيبة نفسـي قبل أن يرى الناس جثتي.. قبّليني قبّليني، يا ليلى.

ووضـع المصـروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه!

فرفعت العروس رأسـها والتفتت نحو المنزل وصـرخت بصـوت هائل: تعالوا، تعالوا أيها الناس، فهنا العرس وهذا العريس. هلمّوا لنريكم مضـجعنا الناعم. اسـتيقظوا أيّها النيّام وانتبهوا أيّها السـكارى وأسـرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة.

تموّج صـراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملاً كلماتها إلى آذان المحتفلين المغتبطين، فـارتعشـت أرواحهم

وأصغوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم، ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه، وساروا متلفتين يميناً وشمالاً، حتى إذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين إلى الوراء، ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر، كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجمد الحياة في أجسادهم.

فالتفتت العروس إليهم وقد اتشحت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة: اقتربوا أيها الجبناء، ولا تخافوا خيال الموت، فهو عظيم لا يدنو من صغارتكم. اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدّسة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة. انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلّة العرس ـــــ هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي- هو عريس وأنا عروسته، وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيّقاً بتقاليدكم ومظلماً بجهالتكم وفاسداً بلهاثكم، ففضّلنا الذهاب إلى ما وراء الغيوم. اقتربوا أيّها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلّكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا، وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلبينا – أين

هي تلك المرأة الخبيثة الحســود التي وشــت إلي بحبيبي، وقالت إنه شــغف بها وســلاني وتعلّق بحبّها لينسـاني؟ قد توهمت تلك الشـريرة أنها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها. أين نجيبة المحتالة؟ أين تلك الأفعى الجهنمية؟ دعوها تقترب الآن وترى أنها قـد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجـل الذي اختارته لي..

أنتم لا تفهمون كلامي، لأن اللجّـة لا تعي أغـاني الكواكب. لكنكم ســوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرســها. ســوف تذكرونني وتلعنوني بشـفاهكم الأثيمة، أمّا حفدتكم فسـوف يباركونني لأن الغد سيكون للحق والروح.

وأنت أيها الرجل الغبي الذي اســتخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيّرني له زوجة ـ أنت رمز هذه الأمة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة، وتترقب خروج الماء من الصخرة، وظهور الورد من القطرب ـ أنت رمز هذه البلاد المســتســلمة لغباوتها اســتســلام الأعمى إلى قائده الأعمى ـــ أنت ممثّل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم

توصّلاً إلى العقود والأساور. أنا أغتفر لك صغارتك. لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلاّت هذا العالم.

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء، ونظير ظامئ يقرب حافة الكأس إلى شفتيه أغمدته بعزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد المنجل. فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأُغمي على بعضهن، وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية واقتربوا من المصروعين بوجل وهيبة.

فنظرت إليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء ينهلّ بغزارة من صدرها البلّوري: لا تقتربوا أيها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدينا، وإن حاولتهم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتحنقكم بعنف وقساوة. دعوا هذه الأرض الجائعة تلوك جسدينا لقمة واحدة، دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع.

ولزّت العروس إلى حبيبها وألقت شفتيها على شفتيه الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع أنفاسها

الأخيرة: انظر يا حبيبي ـــــــ انظر يا عريس نفسي كيف وقف الحسّاد حول مضجعنا ـ انظر عيونهم المحدّقة إلينا، واسمع صرير أسنانهم وتكسّر ضلوعهم. قد انتظرتني طويلاً يا سليم فها أنذا قد كسرت القيود وفككت السلاسل، فلنسرعن نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظلّ. ها قد انمحت الرسوم وانحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي ـــ ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة. هلمّ نذهب يا سليم، فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور.

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه وحنت رأسها على عنقه وظلّت عيناها محدقتين إلى عينيه.

ولبث الناس صامتين هنيهة وقد اصفرّت وجوههم وتراخت رُكبهم، كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوة والحراك.

فتقدّم إذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه أكاليل ذلك العرس وأشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلاً: ملعونة هي الأيدي

التي تُمدّ إلى هذين الجسدين الملطّخين بدماء الجريمة والعار. وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالكين قد حملت الأبالسة روحيهما إلى الجحيم. لتبقَ جثة ابن سادوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب المدنس المجبول بدمائهما حتى تتقاسم لحمانهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح. اذهبوا إلى مساكنكم أيها الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتصاعدة من داخل قلبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة. تفرّقوا أيّها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم ألسنة النار الجهنمية، ومن يبقَ منكم ههنا يكن محروماً ومرذولاً فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون، ولا يشترك بالصلاة التي يقدّمها المسيحيون.

فتقدّمت سوسان، تلك الصبية التي بعثتها العروس رسولاً إلى حبيبها، ووقفت أمام الكاهن ونظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة: أنا أبقى هنا أيّها الكافر الأعمى، وأنا أحرسهما حتى مجيء الفجر، وأنا أحفر لهما قبراً تحت الأغصان المتدلية. فإن منعتم عني محفراً مزّقت صدر الأرض بأصابعي، وإن ربطتم ساعدي حفرته بأسناني. أسرعوا بالخروج من هذا المكان المملوء

برائحة البخور واللبان، فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية، واللصوص الخاطفة تهاب ربّ البيت وتخشى قدوم الصباح. أسرعوا إلى مضاجعكم المظلمة لأن أغاني الملائكة المتموّجة فوق شهيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب.

وتفرّق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك الصبية واقفة بقرب الجثتين الهامدتين كأنها أم رقوب تحرس طفليها في سكينة الليل.

ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب.

خليل الكافر

ـ ١ ـ

كان الشيخ عباس بين سكّان تلك القرية المنزوية في شـــمال لبنان كالأمير بين الرعيّة. وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يشابه الجبّار الواقف بين الأقزام. وكانت معيشـــته ممتازة عن معيشـــتهم بميزة السـعة عن العوز، وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوّة عن الضعف.

إن تكلّم الشيخ عبّاس بين أولئك الفلاّحين حنوا رؤوسهم إيجاباً، كأنّ القوى العقليّة قد انتدبته ممثلاً لها واتخذت لسانه ترجماناً عنها. وإن غضب ارتجفوا جزعاً وتبدّدوا من أمام وجهه، مثلما تتراكض أوراق الخريف أمام الأرياح. وإن صفع خدّ رجل منهم ظلّ ذلك الرجل جامداً

صامتاً كأن الضربة قد أتت من السماء، فمن الكفر أن يتجاسر ويرفع عينيه ليرى من أنزلها. وإن تبسّم لرجل آخر قال الجميع ما أسعده فتى رضي عنه الشيخ عبّاس!

ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى الشيخ عبّاس وخوفهم قساوته صادرين عن ضعفهم وقوّته فقط، بل كانا ناتجين عن فقرهم واحتياجهم إليه. لأن الحقول التي كانوا يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجدّه مثلما ورثوا الفقر والتعاسة عن آبائهم وجدودهم.

فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته، ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم إلاّ على جزء من الغلّة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع. قد كان أكثرهن يحتاج إلى الخبز قبل انقضاء أيّام الشتاء الطويلة، فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ويتضرّع أمامه باكياً مستعطفاً لكي يقرضه ديناراً أو مكيالاً من الحنطة، فكان الشيخ عبّاس يجيب سؤلهم مسروراً لعلمه بأنّه سيستوفي الدينار دينارين، ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء أيّام البيادر والموسم.

وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكبّلين بحاجتهم إليه خائفين غضبه طالبين رضاه.

ـ ٢ ـ

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه، وخلت الحقول والأودية، إلاّ من الغربان الناعبة والأشجار العارية، فلزم سكّان تلك القرية أكواخهم بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عبّاس من الغلّة وملأوا آنيته من عصير الكروم وأصبحوا ولا عمل لهم، يفنون الحياة بجانب المواقد متذكرين مآتي الأجيال الغابرة مردّدين على مسامع بعضهم حكايات الأيّام والليالي.

انقضى كانون الأوّل، وقضى العام العجوز متنهّداً أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي، وجاءت الليلة التي يتوّج فيها الدهر رأس العام الطفل ويجلسه على عرش الوجود.

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والأودية،

وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة، والعواصـف تصـفر وتتسـارع ملعلعة من أعالي الجبال نحو المنخفضـات، حـاملـة الثلوج لتخزنهـا في الوهـاد، فترتعش لهولهـا الأشـجار وتتململ أمامها الأرض، فمزجت الأرياح بين ما تسـاقط من الثلج في ذلك النهار والسـاقط منه في تلك الليلة، حتى أصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضـاء يكتب عليها الموت سـطوراً مبهمة ثمّ يمحوها، وفصل الضباب بين القرى المنثورة على كتفي الوادي وتوارت الأنوار الضـئيلة التي كانت تشـعشـع في نوافـذ البيوت والأكواخ الحقيرة. وقبض الرعـب على نفوس الفلاحين، وانزوت البهـائم بقرب المعـالف، واختبأت الكلاب في القراني، ولم يبقَ سوى الريح تخطب وتضجّ على مسامع الكهوف والمغاور، فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة، وطوراً ينقضّ من أعالي قمم الجبال. فكأنّ الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز، فقـامـت تـأخـذ بثـأره من الحيـاة المختبئـة في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد.

ففي هذه الليلة الهائلة، وتحت هذا الجو الثائر، كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق

المتصاعدة بتدرّج من دير قزحيّا[1] إلى قرية الشيخ عباس، وقد أيبس البرد مفاصله، وانتزع الجوع والخوف قواه، وأخفت الثلوج ثوبه الأسود كأنّها تريد أن تكفنه قبل أن تميته، فكان يخطو إلى الأمام والأرياح تصدّه وترجعه إلى الوراء، كأنّها أبت أن تراه في منازل الأحياء، وتتشبث الطريق الوعرة بقدميه فيسقط ثم ينهض ثمّ يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً، ثمّ يخرسه البرد صامتاً مرتجفاً فكأنّه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق. أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيّار الغضوب إلى الأعماق.

وظلّ الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه وانحطّت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتمى على الثلوج.

وصرخ صوتاً هائلاً هو بقيّة الحياة في جسده. صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه. صوت منازع قانط

---

(١) هو أغنى وأشهر دير في لبنان، تقدر حاصلاته بألوف الدنانير، ويسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلديين. وقزحيا لفظة سريانية معناها "فردوس الحياة".

أتلفته الظلمة وقبضــت عليه العاصــفة لترمي به إلى الهاوية. صوت محبّة الكيان في فضاء العدم.

ـ ٣ـ

في الجهة الشـماليّة من تلك القرية، كوخ صـغير بين الحقول تســكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها. هذه المرأة هي أرملة ســمعان الرامي الذي وجد قتيلاً في البريّة منذ خمســة أعوام ولم يعرف قاتله بعد.

كـانـت راحيـل مثـل جميع الأرامـل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء. فكانت تخرج أيّام الحصــاد وتلتقط الســنابل المتروكة في الحقل، وفي أيّام الخريف كـانـت تجمع فضــلات الأثمـار المنســية في البســاتين، وفي الشــتاء كانت تغزل الصــوف وتخيط الأثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة. وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصــبر والاعتناء. أمّا ابنتها مريم فكانت صــبية جميلة هادئة تشــاطر والدتها الأتعاب

وتساهمها أعمال البيت.

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصـــفناها كانت راحيل وابنتها جالســتين بقرب موقد قد تغلّب البرد على حرارته واكتنف الرماد جمره، وفوق رأســيهما ســراج ضــعيف يبعث أشــعّته الصــفراء الضــئيلة إلى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح التعزية إلى كبد الفقير الحزين.

انتصــف الليل والمرأتان جالســتان تســمعان ولولة الأرياح خارجاً، ومن وقت إلى آخر كانت الصــبية تقف وتفتح الكوّة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثمّ تعود إلى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر.

في تلك الدقيقة تحرّكت الصبيّة فجأة كأنّها استيقظت من ســبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو أمّها وقالت بسرعة: هل سمعت يا أمّاه؟ هل سمعت صوت صارخ مستغيث؟

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثمّ أجابت: لا، لا أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي.

فقالت الصبية: أنا قد سمعت صوتاً أعمق من هزيم الريح وأمرّ من عويل العاصفة.

قالت هذه الكلمات وانتصـــبت واقفة وفتحت الكوّة وأصغت دقيقة ثمّ قالت: قد سمعت الصراخ ثانية يا أمّاه. فأجابت الأم وقد أســـرعت مرتاعة نحو النافذة: وأنا قد سمعت أيضاً... تعالي نفتح الباب وننظر. أوصدي النافذة كي لا تطفئ الريح السراج.

قالت هذا والتفّت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجدايل شعرها.

مشـــت راحيل بضـــع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثمّ وقفت ونادت: من الصـــارخ؟ أين المســـتغيث؟ فلم يجبها أحد، ثمّ ردّدت كلماتها هذه ثانية وثالثة، وإذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدّمت إلى الأمام بشجاعة متلفّتة إلى كلّ ناحية حاجبة وجهها من تموّجات الريح العنيفة. ولم تسـر رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تموحها، فاتبعتها بسرعة جازع مترقب، وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جســـداً مطروحاً على الثلج كرقعة سـوداء على ثوب ناصـع البياض. فتقدّمت وذرت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها

ووضعت يدها على صدره، وإذ شعرت بنبضات قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة: هلمّي يا مريم، هلمّي إلى معونتي فقد وجدته.

فخرجت مريم من البيت متبعة أثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد والخوف، حتى إذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على الثلج تأوّهت وصرخت بلهفة وتوجّع، فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت إبطيه: هو حيّ فلا تخافي بل امسكي بأطراف أثوابه وتعالي نحمله إلى البيت.

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج تتمسّك بأقدامهما حتى إذا ما بلغتا به الكوخ ألقتاه بجانب الموقد وأخذت الأم تفرك أعضاءه المتجمدة والابنة تجفّف بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابعه الباردة. فلم تمر بضع دقائق حتى عادت إليه الحياة فتحرّك قليلاً وارتعشت أجفانه وتنهّد تنهيدة عميقة بعثت الأمل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقتين. فقالت مريم بعد أن حلّت سيور حذائه المهشّم وخلعت عباءته البليلة: انظري يا أمّاه، انظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان. فالتفتت

راحيل وقد وضعت في الموقد غمراً من القضبان اليابسة وقالت مستغربة: إن الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة، فأي شيء يا ترى جعل هذا المسكين يخاطر بحياته؟

فقالت الصبية مستدركة: ولكن هو أمرد يا أمّاه وللرهبان لحى كثيفة. فنظرت إليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالديّة من عينيها وقالت متنهدة: جفّفي قدميه جيداً يا ابنتي راهباً كان أم مجرماً.

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرّة صغيرة مملوءة خمراً وسكبت منها في إناء من الفخّار ثمّ قالت لابنتها: أسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلاً من الخمر فينتعش وتعود الحرارة إلى جسده.

قرّبت راحيل حافة الطاس إلى شفتي الشاب وجرعته قليلاً ففتح عينيه الكبيرتين ونظر إلى منقذتيه لأوّل مرّة نظرة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل ـــ نظرة من شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت ـــ نظرة الأمل مع اليأس. ثمّ ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين: ليبارككما الله.

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه: لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي، بل ابقَ صامتاً حتى تعود إليك القوّة.

وقالت مريم: اتكئ يا أخي على هذا المسند واقترب قليلاً من الموقد.

فاتكأ الشاب متنهّداً. وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمراً وسقته ثانية، ثمّ التفتت نحو ابنتها وقالت: ضعي جبته بقرب النار لتجفّ. ففعلت مريم ثمّ جلست تنظر إليه بحنوّ وشفقة كأنّها تريد أن تبثّ بنظراتها الحرارة والقوّة في جسده النحيل.

وأحضرت راحيل إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجفّفة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقماً صغيرة مثلما تفعل الأمّ وطفلها. حتى إذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصفر وتلمّعت عيناه الحزينتان ثمّ قال هازّاً رأسه بهدوء: "الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة

المظلمة، ولكن ســوف تتغلّب الرحمة على القســاوة لأنّهـا إلهيّـة، وســـوف تمرّ مخـاوف هـذه الليلـة بمجيء النهار". وسكت الشاب دقيقة ثمّ زاد بصوت منخفض يكاد لا يســمع: يد بشــريّة دفعتني إلى الهوان ويد بشــريّة خلّصتني، فما أشد قساوة الإنسان وما أكثر رأفته!

فقـالـت راحيـل بصـــوت تمتزج بمقـاطعـه عـاطفـة الأمومة بعذوبة الطمأنينة: كيف تجرأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب فتنزوي بالكهوف، وتهابها العقبان فتختبئ بين الصخور؟

فأغمض الشـــاب عينيه كأنّه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع إلى أعماق قلبه ثمّ قال: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأمّا ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه.

فقالت راحيل: هكذا قال يسـوع الناصـري عن نفسـه عندما طلب إليه أحد الكتبة أن يتبعه إلى حيث يذهب.

فأجاب الشـــاب: وهكذا يقول كلّ من يريد أن يتبع الروح والحقّ في هـذا الجيـل المملوء بـالكـذب والريـاء والفساد.

فسكتت راحيل مفكّرة بمعنى كلماته ثم قالت

بشـــيء من التردّد: ولكن في الـدير غرف عـديـدة رحبة، وخزائن طافحة بالذهب والفضّـــة، وأقبية مملوءة بالغلّة والخمور، وزرائب غاصّـــة بالعجول والكبوش المسمّنة، فأيّ أمر جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه الليلة؟

فقال الشـــاب متنهداً: قد تركت جميع هذه الأشـــياء وخرجت كرهاً من الدير.

فقالت راحيل: إن الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسـرعاً. وقد سـمعت بأن الرجل لا يصـير راهباً إلاّ إذا نزع عنه الإرادة والفكر والميل وكلّ ما يختصّ بالنفس، ولكن الرئيس الصـــالح لا يطلب من مرؤوســـيه فوق طاقتهم، فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيّا أن تســلّم حياتك إلى العواصف والثلوج؟

فأجاب الشـاب: إن الرجل لا يصـير راهباً في عرف رئيســـه إلا إذا كان مثل آلة عمياء خرســـاء فاقدة الحسّ والقوّة. أمّا أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آلة عمياء بل إنسان يرى ويسمع.

فحدقت إليه راحيل ومريم كأنّهما قد رأتا في وجهه سرّاً خفيّاً يريد كتمانه، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة: أيخرج الإنسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصمّ الآذان؟

فتنهّد الشاب وحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق: خرجت مطروداً من الدير.

فقالت راحيل بدهشة: مطروداً!؟

وردّدت مريم هذه الكلمة متأوّهة.

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمرأتين، وخاف أن تتحوّل رأفتهما به إلى استياء واستهجان، ولكنّه نظر فرأى في عينيهما أشعّة الشفقة متموّجة مع محبّة الاستطلاع، فقال بصوت مخنوق: نعم خرجت مطروداً من الدير لأنّني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي. لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء. لأن نفسي أبت أن تتنعّم بأموال الفقراء والمساكين. لأن روحي امتنعت عن التلذّذ بخيرات الشعب المستسلم إلى الغباوة. خرجت مطروداً لأن جسدي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة. لأن لساني لم

يعد يتحرّك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء. خرجت مطروداً كالأبرص القذر لأنّني ردّدت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسساً ورهباناً.

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين إليه مستغربتين كلامه محدقتين إلى وجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والأخرى إلى بعضهما كأنّهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به إليهما. حتى إذا ما نمت محبّة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت إليه بانعطاف وسألته قائلة: أين أبوك وأمّك يا أخي، هل هما حيّان؟

فأجاب الشاب والغصص الموجعة تقطّع ألفاظه: ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا مسقط رأس.

فتنهّدت راحيل متأثرة وحوّلت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها. فنظر إليهما الشاب نظرة المغاوب إلى منجده وقد انتعشت نفسه برقّة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في

قلبها. ثمّ رفع رأســـه وقال: مات أبي وأمّي قبل أن أبلغ الســابعة من عمري، فأخذني كاهن القرية التي ولدت فيها إلى دير قزحيّا، فســـرّ الرهبان بي وجعلوني راعياً للبقر، ولما بلغت الخامســـة عشــرة ألبســوني هذا الثوب الأســود الخشــن وأوقفوني أمام المذبح قائلين: أقســم بالله وقدّيســـيه بأنّك قد نذرت الفقر والطاعة والعفّة. فردّدت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف، وقبل أن أرى الســبيل الضـــيقة التي سيّروني عليها. كان اسمي خليلاً فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الأخ مبارك ولكنّهم لم يعاملوني قط كـأخ لهم. كـانوا يتنعّمون بـاللحوم والمـآكـل الشـــهيّـة ويطعمونني الخبز اليـابس والبقول المجفّفـة، ويتلـذّذون بالخمور والمشـــارب الطيّبة ويســـقونني الماء ممزوجاً بالدموع، ويضــطجعون على الأســرّة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير، فكنت أقول في نفسي: متى أصير راهباً يا ترى فأشـارك هؤلاء السعداء بغبطتهم، وأصبح خليقاً بملذّاتهم ومسرّاتهم، فلا تقطع قلبي رائحة الطعام، ولا تعذب كبدي ألوان الخمور، ولا ترتعش روحي لصوت

الرئيس؟ ولكن باطلاً كنت أتمنّى وأحلم لأنني بقيت أرعى البقر في البرّيـة، وأنقـل الحجـارة الثقيلـة على ظهري، وأحفر التراب بساعدي.

بقيت أفعل كل ذلك لبقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيّق، لأنني لم أكن أعلم أنّه يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنّهم علّموني الكفر بكلّ شيء إلاّ معيشتهم، وسمّموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام، حتى ظننت أن هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء، وأن الدير هو ميناء الخلاص.

واستوى خليل جالساً وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر كأنّه رأى شيئاً جميلاً منتصباً أمامه في ذلك الكوخ. أمّا راحيل ومريم فلبثتا صامتتين محدقتين إليه، وبعد هنيهة عاد فقال: إن السماء التي شاءت فأخذت والديّ ونفتني يتيماً إلى الدير، لم تشأ أن أصرف العمر كلّه كالأعمى السائر في المعابر الخطرة ولم ترضَ بأن أكون عبداً تعساً متصاغراً إلى نهاية الحياة، ففتحت عينيّ وأذنيّ وأرتني النور مشعشعاً وأسمعتني الحقيقة متكلّمة.

فهزّت راحيل رأسها إذ ذاك وقالت: أيوجد نور غير

النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة؟

فأجاب خليل قائلاً: النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان، ويبيّن سرائر النفس للنفس، ويجعلها فارحة بالحياة مترنّمة باسم الروح. أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلاّ من وراء ظلمة الليل. الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها المستحبّة إلاّ لمن شعر بتأثيرات البُطل القاسية. الحقيقة هي تلك العاطفة الخفيّة التي تعلّمنا أن نفرح بأيّامنا. وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس.

فقالت راحيل: كثار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفيّة الكائنة في قلوبهم، وكثار هم الذين يعتقدون أن هذه العاطفة هي ظلّ الناموس الذي سنّه الله للإنسان. ولكنّهم لا يفرحون البتّة بأيّامهم بل يظلون تعساء حتى الموت.

فأجابها خليل قائلاً: باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تعساً في حياته. وكذّابة هي العواطف التي تقوده إلى اليأس والحزن والشقاء. لأن واجب الإنسان

أن يكون سعيداً على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها أينما كان. ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية. لأنّنا لم نجئ هذا العالم كالمنّفيين المرذولين، بل جئنا كالأطفال الأغبياء لكي نتعلّم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلّي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا.

هذه هي الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري، وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير ومن فيه كهوّة مظلمة تنبعث من أعماقها الأشباح المخيفة لتميتني. هذا هو السرّ الخفيّ الذي أعلنته البرّية الجميلة لنفسي عندما كنت أجلس جائعاً باكياً متأوّهاً في ظلّ الأشجار.

ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الخمرة السماويّة تشجعت ووقفت بين الرهبان، إذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة. وأخذت أبين لهم أفكاري وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم. قلت لهم: لماذا نصرف الأيّام في هذه الخلوة متمتّعين بخيرات الفقراء والمساكين،

مســـتطيبين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم، متلذّذين بغلّة الأرض المسلوبة منهم ـــــ لماذا نعيش في ظلال التواني والكســل، مبتعدين عن الشــعب المحتاج إلى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوســنا وعزم ســواعدنا؟ إن يســوع الناصــري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب، فأيّ تعاليم جعلتكم تصــيرون كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتعدون عن البشــر وقد خلقكم الله بشــراً؟ إذا كنتم أفضـــل من الناس الســـائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعلّموهم، وإن كانوا أفضـــل منكم امتزجوا بهم وتعلّموا.. كيف تنـذرون الفقر وتعيشـــون كالأمراء، وتنـذرون الطاعة وتتمرّدون على الإنجيل، وتنـذرون العفّة وقلوبكم مفعمة بالشـــهوات؟.. أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنّكم لا تقتلون غير نفوسكم. وتتظاهرون بالترفّع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طعماً. وتتظاهرون بالتنسّـــك والتقشّـــف وأنتم كالبهائم المشـــغولة عن المعرفة بطيب المرعى. تعالوا نعيد أراضي الدير الواسعة إلى سكّان هذه القرى المحتاجين، ونرجع إلى جيوبهم الأموال التي أخذناها. تعالوا نتفرّق إلى كلّ ناحية مثلما تتفرّق أسراب الطيور، فنخدم الشعب الضعيف

الـذي جعلنـا أقويـاء، ونصـــلح البلاد التي نعيش بخيراتها، ونعلم هذه الأمّة التعسـة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السـماء ومجد الحياة والحرية. لأن المتاعب التي نجدها بين النـاس هي أجلّ وأجمل من الراحة التي نسـتسـلم إليها في هذا المكان، والرأفة التي تلامس بها قلب القريب هي أسـمى من الفضـيلة المختبئة في قراني الدير، وكلمة التعزية التي نقولها على مسـامع الضـعيف والمجرم والسـاقطة هي أشـرف من الصـلاة الطويلة التي نردّدها في الهيكل.

وسـكت خليل دقيقة مسـترجعاً أنفاسـه ثمّ رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ:

كنت أتكلّم بهذه الأشـياء وما يشـابهها أمام الرهبان وهم سـامعون ودلائل الاسـتغراب بادية على وجوههم، كأنّهم لم يصدّقوا أن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلّم متجاسراً بمثل هذا الكلام، حتى إذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً أسنانه: أتتجرأ أيّها الضـعيف وتتلفّظ أمامنا بمثل هذا الكلام؟ واقترب آخر وقال ضـاحكاً مسـتهزئاً: هل تعلّمت هذه الحكمة من البقر والخنازير

التي رافقتها كل أيّام حياتك؟ وجاء آخر وقال متوعّداً: سوف ترى ما يحلّ بك أيّها الخبيث الكافر. ثمّ تفرّقوا عني إلى كلّ ناحية مثلما يبتعد الأصحّاء عن الأبرص.

وذهب بعضهم وشكوني إلى الرئيس، فاستدعاني عند غروب الشمس. وبعد أن وبّخني بقساوة على مسمع من الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجُلدت بسياط من المرس، ثمّ حكم بسجني شهراً كاملاً، فاقتادني الرهبان مقهقهين فرحين إلى غرفة رطبة مظلمة.

انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا أشعر بغير دبيب الحشرات، ولا ألمس سوى التراب، ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار، ولا اسمع سوى وطء أقدام الرهبان عندما يجيء ويضع بقربي كسرة من الخبز اليابس العطن وطاساً من الماء الممزوج بالخل. ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي واصفرار وجهي، توهّموا أن ميول نفسي قد ماتت في داخلي، وأنهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي...

مرّت الأيام إثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكّراً في

ســـاعات انفرادي بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويســمعون نغمة الحياة. ولكن باطلاً كنت أفكّر وأفكّر، لأن الغشـــاء الكثيف الذي حاكته الأجيال الطويلة على أبصـــارهم لا تمزّقه الأيّام القليلة. والطينة التي طلت بها الغباوة آذانهم قد تحجّرت، فلا تزيلها ملامس الأصابع الناعمة.

وبعد ســكينة مملوءة بالتنهّدات، رفعت مريم رأســها والتفتت نحو والدتها كأنّها تســتأذنها بالكلام، ثمّ نظرت بكآبة نحو خليل وسـألته قائلة: هل عدت وتكلّمت ثانية أمام الرهبان فطردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلّم الإنسان أن يكون رؤوفاً ورفيقاً حتى بأعدائه!

فقال الشـــاب: في هذا المســـاء عندما تعاظم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتجاوب في الفضاء، جلست منفرداً عن الرهبان المســتدفئين حول النّار والمشــغولين بســرد الحوادث والحكايات المضــحكة. وفتحت الإنجيل متأمّلاً بتلك الأقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر. ولما رآني الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا انفرادي سبباً للسخرية بي فجاء بعضهم ووقفوا

بقربي وأخذوا يتغامزون ويضـــحكون ويشـــيرون نحوي مسـتهزئين، فلم أحفل بهم بل أطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة. فتلملموا لذاك غيظاً ونظروا إليّ شزراً. لأنّ ســـكوتي قد أيبس عواطفهم، ثمّ قال أحدهم ســـاخراً: مـاذا تقرأ أيهـا المصـــلح العظيم؟ فلم أرفع عينيّ نحو المتكلّم، بل فتحت الإنجيل وقرأت منه بصـــوت عالٍ هذه الآية: وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه: يا أولاد الأفـاعي من أراكم أن تهربوا من الغضـــب الآتي فـاصـــنعوا أثمـاراً تليق بـالتوبـة ولا تبتـدئوا تقولون في نفوسـكم إن لنا إبراهيم أباً لأنّي أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هـذه الحجـارة أولاداً لإبراهيم. والآن وقـد وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكلّ شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار. وســـأله الجموع قائلين: فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليعطِ من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا.

عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنّا المعمدان، ســـكت الرهبان دقيقة كأن يداً خفيّة قد قبضـــت على أرواحهم، ولكنّهم عادوا وقهقهوا ضـاحكين ثمّ قال أحدهم: قد قرأنا هذا الكلام مرّات عديدة ولسنا

نحتاج لرعاة البقر أن يردّدوه على مســـامعنا. فقلت: لو كنتم تقرؤون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكّان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأفّفون برداً ويتضـوّرون جوعاً وأنتم ههنا تتمتّعون بخيراتهم وتشـربون عصـير كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم..

لم تخرج هذه الألفاظ من بين شفتيّ حتى صفعني أحد الرهبـان على وجهي كـأنّي لم أتكلّم بغير الحمـاقـة، ثمّ رفسـني آخر برجله، وآخر انتزع الكتاب من يدي، وآخر نادى الرئيس فجاء مسـرعاً، وإذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضباً وصرخ بأعلى صـوته: اقبضـوا على هذا الشـرّير المتمرّد، وجرّوه بعيداً عن الدير، ودعوا العناصـــر الغضـــوب تعلمه الطاعة. أخرجوه إلى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشـــيئة الله، ثمّ اغســـلوا أكفّكم خوفاً من ســموم الكفر المتعلّقة بأثوابه، وإن عاد متضـرّعاً متظاهراً بالتوبة لا تفتحوا له الأبواب، لأن الأفعى إذا ســـجنـت في القفص لا تنقلـب حمـامـة، والعلّيقة إذا غرست في الكرم لا تثمر تيناً.

حينئذٍ قبض الرهبان عليّ وجرّوني بعنف إلى خارج

الدير وعادوا ضـاحكين، وقبل أن يوصـدوا الأبواب سـمعت أحدهم يقول سـاخراً: كنت بالأمس ملكاً وكانت رعيتك البقر والخنازير، وقد خلعناك اليوم أيّها المصـلح لأنّك أسـأت السياسـة، فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجائعة والغربان المتطايرة، وعلّمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها.

وتنهّد خليل تنهيدة عميقة، ثمّ حوّل وجهه ونظر إلى النّار المتأجّجة في الموقد. وبصـوت جارح بحلاوته قال: هكذا طردت من الدير. وهكذا سـلّمني الرهبان إلى يد الموت، فسـرت والضـباب يحجب الطريق عن بصـري، والرياح الشديدة تمزّق أثوابي، والثلوج المتراكمة تتمسّك بركبتيّ، حتى وهنت قواي فسـقطت مسـتغيثاً صـارخاً صـراخ يائس شعر بأنّه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأوديـة المظلمـة. ولكن من وراء الثلوج والأريـاح، من وراء الظلمـة والغيوم، من وراء الأثير والكواكب ومن وراء كل شـيء قوّة هي كلّ معرفة وكلّ رحمة قد سـمعت صـراخي وندائي فلم تشـأ أن أموت قبل أن أتعلم مـا بقي من سـرائر الحيـاة، فبعثتكمـا إليّ لكي تسترجعاني من أعماق الهاوية والعدم.

وســكت الشــاب والمرأتان تنظران إليه بانعطاف وإعجاب وشــفقة كأن نفســيهما قد فهمتا خفايا نفســه واشــتركتا معها بالشــعور والمعرفة. وبعد هنيهة مدّت راحيل يدها قســر إرادتها ولمســت يده بلطف وقالت والدموع تتلمّع في عينيها: إن من تختاره السـماء نصـيراً للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف.

وهمســت مريم قائلة: إن العواصــف والثلوج تفني الزهور ولكنّها لا تميت بذورها.

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصــفرّ مثلما تنير أشــعة الفجر خطوط الأفق: إن كنتما لا تحســبانني متمرّداً وكافراً كما يحســبني الرهبان يكون الاضــطهاد الذي لقيته في الدير رمزاً للشــدّة التي تعانيها الأمّة قبل بلوغها المعرفة. وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شــبيهة بالثورات التي تتقدّم الحريّة والمســاواة. لأن من قلب المرأة الحسّاس تنبثق سعادة البشر، ومن عواطف نفسها الشريفة تتولّد عواطف نفوسهم.

قال هذا واتكأ على الوسادة، فلم تشأ المرأتان متابعة الحديث لأنّهما عرفتا من نظراته أن النعاس المتولّد

من الراحة والاســـتدفاء بعد عناء المســـير قد راود عينيه.

ولم تمر بضـــع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المســتأمن على ذراعي أمّه، فقامت راحيل بهدوء وتبعتها مريم وجلستا على فراشـهما تنظران إليه كأن في وجهه الذابل جاذباً يســتميل روحيهما ويحيط بقلبيهما. ثمّ همســـت الوالدة كأنها تتكلّم مع نفســـها وقالت: في عينيه المطبقتين قوّة غريبة تتكلّم بالسكينة وتنبّه ميول النفس.

وقالت الابنة: يداه يا أمّاه مثل يدي صـــورة يســـوع الموجودة في الكنيسة.

فهمســـت الوالدة: على وجهه الكئيب ظاهرة رقّة المرأة وقوّة الرجل.

وحملـت أجنحـة الكرى روحي المرأتين إلى عـالم الأحلام، وخمدت النار في الموقد وتحوّلت إلى رماد. ثمّ جف زيت الســـراج فشـــحّ نوره ببطء ثمّ انطفأ. وظلت العاصـفة الغضـوب تضـجّ خارجاً والجو القائم ينثر رقع الثلوج، والأرياح العنيفة تقذفها يميناً وشمالاً.

- ٤ -

مضـــى أســبوعان على تلك الليلة والفضـــاء المتلبّد بـالغيوم يســكن حينـاً ثمّ يثور متهيّجـاً، غـامراً الأوديـة بالضـــباب، مكفناً الطلول بالثلوج. وقد همّ خليل ثلاث مرّات أن يتابع مسيره نحو السـاحل فكانت راحيل تصـدّه بلطف وانعطاف قائلة:

لا تســلّم حياتك ثانية إلى العناصـــر العمياء، بل ابقَ ههنا يا أخي، فالخبز الذي يشـبع اثنين يكفي ثلاثة، والنّار في هذا الموقد تظلّ متقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله. نحن فقراء يا أخي ولكنّا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع النّاس، لأن الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا.

أمّا مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتســتعطفه بتنهداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب، لأنّها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت الحقير، شـــعرت بوجود قوّة علويّة في نفســـه تبعث الحياة والشـــعاع إلى قلبها، وتنبّه عواطف جديدة مستحبّة في قدس من أقداس روحها –

لأنّها شــعرت لأوّل مرّة في حياتها بتلك الحاســة الغريبة التي تجعل قلب الصــبيّة النقي مثل وردة بيضــاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر.

لا يوجد في داخل الإنسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة الخفيّة التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبيّة وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية، وتجعل ايّامها شبيهة بأحلام الشـعراء ولياليها مثل الأنبياء. ولا يوجد بين أسـرار الطبيعة سـرّ أقوى وأجمل من ذلك الميل الذي يحوّل سكينة نفس العذراء إلى حراك مســتمرّ يميت بعزمه ذكرى الأيّام الغابرة. ويحيي بحلاوته الآمال بالأيّام الآتية.

والصــبيّة اللبنانية تمتاز عن صــبايا الأمم بقوة عواطفها ورقّة إحساسها، لأن التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من النموّ وتوقف مداركها عن الارتقاء، تحوّل نفسها إلى استفسار ميول نفسها وتشعل قلبها باستطلاع خفايا قلبها. الصــبيّة اللبنانيّة مثل ينبوع يخرج من قلب الأرض بين المنخفضــات، فلا يجد ممرّاً ليســير به نهراً نحو البحر، فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعّة القمر والنجوم.

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه، وعرف أن الشعلة المقدّسة التي أحاطت بقلبه قد لامست قلبها. ففرح لأوّل وهلة فرح طفل ضائع وجد أمه، ولكنّه عاد فلام نفسه على تسرّعها وانشغالها ظنّاً منه بأن هذا التفاهم الروحي سيضمحل كالضباب عندما تفصله الأيّام عن تلك القرية، فكان يناجي نفسه قائلاً: ما هذه الأسرار الخفيّة التي تتلاعب بنا ونحن غافلون؟ وما هذه النواميس التي تسيرنا تارة على سبل وعرة فنسير منقادين، وتوقفنا طوراً أمام وجه الشمس فنقف فرحين، وتبلغنا مرّة قمّة الجبل فنبتسم متهلّلين، وتهبط بنا أخرى إلى أعماق الوادي فنصرخ متوجّعين؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوماً كالحبيب ويوماً تصفعنا كالعدوّ؟ ألم أكن بالأمس مكروهاً مضطهداً بين رهبان الدير؟ أوَلم أقبل العذاب والسخرية من أجل الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري؟ أوَلم أقل للرهبان إن السعادة هي مشيئة الله في الإنسان؟

إذاً ما هذا الخوف، ولماذا أغمض عينيّ وأحوّل وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه الصبيّة؟ أنا مطرود وهي فقيرة، ولكن أبالخبز وحده يحيا الإنسان؟ أوَليست الحياة

ديناً ووفاء؟ أوَلسنا بين العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف؟ ولكن ماذا تقول راحيل إذا علمت أن روح الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من دائرة النور الأعلى؟ وماذا تفعل يا ترى إذا ما درت بأن الشاب الذي خلصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها؟ وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء إذا علموا أن فتى ربي في الدير وخرج منه مطروداً، جاء قريتهم لكي يعيش بقرب صبيّة جميلة؟ أفلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم إن الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص إلى النور والحريّة، وماذا يقول الشيخ عباس العائش بين هؤلاء الفلاّحين المساكين كالمير بين العبيد، إذا ما سمع حكايتي؟ وماذا يفعل كاهن القرية إذا ما ردّدوا على مسامعه تلك الأقوال التي سبّبت طردي من الدير؟

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمّل ألسنة النّار الشبيهة بعواطفه. أمّا مريم فكانت تختلس النظرات إليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه، وتسمع صدى أفكاره خارجاً من صدره، وتشعر بأخيلة هواجسه متمايلة حول قلبه.

ففي عشـــيّة يوم، وقد وقف خليل بقرب الكوّة المطلّة نحو الوادي، حيث الأشـجار والصـخور الملتحفة بالثلوج التحـاف الأموات بـالأكفان، جاءت مريم ووقفت بجـانبـه ونظرت من الكوّة إلى الفضـاء، فالتفت نحوها، وإذ التقت عيناه بعينيها تنهّد تنهيدة محرقة ثمّ حوّل وجهه وأغمض أجفانه كأن نفســه قد تركته وســبحت ســاعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها.

وبعد هنيهة تشجّعت مريم وسألته قائلة: إلى أي مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات؟

فـأجـابهـا وقد فتح عينيـه الكبيرتين وحدّق إلى الأفق البعيد: سوف أتبع الطريق إلى حيث لا أعلم.

فارتعشت روح مريم ثمّ قالت متنهّدة: لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منّا؟ أليست الحياة ههنا أفضل من الغربة البعيدة؟

فأجابها وقد اضـطربت أحشـاؤه لرقّة كلماتها ونغمة صوتها: إن سكّان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ولا يســمحون له أن يتنفّس الهواء الذي يحييهم، لأنّهم يحسبون عدوّ الرهبان كافراً بالله وقدّيسيه.

فتأوّهت مريم ولبثت ساكتة، لأن الحقيقة الجارحة قد أخرستها. حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال: إن سكّان هذه القرى يا مريم قد تعلّموا من الرهبان والكهّان بغض كلّ من يفكر لذاته، فصاروا يقلّدونهم ويبتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين. فإذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكّانها تعالوا يا إخوتي نعبد ونصلّي حسب مشيئة نفوسنا، لا مثلما يريد الرهبان والقسس، لأن الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلد غيره، يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهّانه. وإن قلت لهم أصغوا يا إخوتي واسمعوا صوت قلوبكم، واعملوا إرادة الروح الكائنة في أعماقكم، يقولون هذا شرّير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض.

ونظر خليل إذ ذاك إلى عيني مريم، وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضّية قال: ولكن في هذه القرية يا مريم قوّة سحريّة تمتلكني وتتشبّث بنفسي ــــ قوّة علويّة قد أنستني اضطهاد الرهبان وحبّبت إليّ قساوتهم. في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه، وفيها عانقت روحي روح

الله. في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك، يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي. فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشـــراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير، أم أبقى بجـانبهـا وأحفر لأفكـاري وأحلامي قبراً بين الأشـــواك المحيطة بها؟ ماذا أفعل يا مريم؟

ســـمعت مريم هذه الكلمـات فـاهتزت قـامتهـا مثلمـا ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر، وفاضت أشعّة قلبها من مقلتيها، فقالت والحياء يغالب لســـانها: كلانا بين يدي قوّة خفيّة عادلة رحوم، فلندعها تفعل ما تشاء بنا.

منـذ تلـك الـدقيقـة تمـازجـت عواطف خليل بعواطف مريم، وصـــارت نفســاهما شـعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور ويتضوّع حولها البخور.

ـ ٥ـ

منذ ابتداء الدهر إلى أيّامنا هذه، والفئة المتمســـكة بالشـــرف الموروث تتحالف وتتفّق مع الكهّان ورؤســـاء الأديان على الشـــعب. هي علّة مزمنة قابضـــة بأظفارها على

عنق الجامعة البشـريّة، ولن تزول إلاّ بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصـير عقل كلّ رجل ملكاً ويصـبح قلب كلّ امرأة كاهناً.

ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضـعفاء. والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعي الفلاّح المسكين والكاهن يمد يده إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى ابناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً. وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشـريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحلّ الأرواح.

وفي لبنان ـــ ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير إلى نور المعرفة ـــ قد أيد الشريف والكاهن على الفقير الضـعيف الذي يحرث الأرض ويستغلّها كيما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني.

ابن الشـرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصـره ويصـرخ باللبنانييّن قائلاً: قد أقامني السـلطان وليّاً على أجسادكم. والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً: قد

أقـامني الله وصــــيّـاً على أرواحكم. أمّـا اللبنـانيّون فيظلّون صـامتين لأن القلوب المغلفة بالتراب لا تنكسـر، لأن الأموات لا يبكون.

فالشــيخ عبّاس الذي كان في تلك القرية وليّاً وحاكماً وأميراً، كان محبّاً لرهبان الدير، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم، لأنّهم كانوا يشـــاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه.

ففي ذلك المساء ـ بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب، وراحيل تنظر إليهما بانعطاف مســتطلعة خفايا نفسيهما ـ ذهب الخوري الياس كاهن القرية وأخبر الشـيخ عبّاس أن الرهبان الأتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرّداً شــرّيراً. وإن هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين، وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سمعان الرامي.

ولم يكتفِ الخوري الياس بإبلاغ الشــيخ هذا الخبر، بل زاد قائلاً: إن الشــيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكـاً في هـذه القريـة، والتينـة التي يقطعهـا ربّ الحقل ويلقيها في النار لا تعطي ثماراً جيّدة وهي في الموقد. فإن

كنّا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة، علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير.

فسأله الشيخ عبّاس قائلاً: وكيف عرفت أن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلّة الخبيثة؟ أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطوراً للكروم أو راعياً للبقر؟ نحن بحاجة ماسة إلى العمّال، فإذا جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه.

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ثمّ قال ممشطاً لحيته الكثيفة بأصابعه: لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان، لأن أراضي الدير واسعة وقطعانه لا تحصى. وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس، أن هذا الشاب كان يردّد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثوريّة تدل على طيشه وخباثته، فقد تجاسر مرّات عديدة وخطب فيهم قائلاً: ارجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله إلى سكّان هذه القرى الفقراء. وتفرّقوا إلى كلّ ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة. وأخبرني المكاري أيضاً

بأن قســـاوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالســـياط وظلمة الســـجن. لم تُعد لهذا الكافر صـــوابه، بل كانت تغذي الشـيطان القابض على نفســه مثلما تكثر أوســاخ المزابل عدد الحشرات.

فانتصب الشيخ عبّاس على قدميه، ونظير نمر يتراجع قليلاً إلى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكتاً هنيهة يصرّ أسنانه وينتفض غيظاً. ثمّ مشـــى نحو باب القاعة ونادى خدّامه بصـــوت عالٍ، فجاء ثلاثة منهم ووقفوا أمامه مســـتطلعين أمره، فخاطبهم قائلاً: في بيت راحيل الأرملة شـــاب مجرم يرتدي أثواب راهب، فاذهبوا الآن وقودوه إليّ مكتوفاً، وإن قاومتكم تلك المرأة اقبضوا عليها وجرّوها على الثلج بجدائل شعرها، لأن من يساعد الشرّير يكون شرّيراً.

فحنى الخدام رؤوســـهم وخرجوا مســـرعين ليتمّموا مشـيئة سـيّدهم، وبقي الشـيخ عبّاس والكاهن يتحدّثان عمّا يجب أن يفعلاه بالشاب المطرود وراحيل الأرملة.

- ٦ -

توارى النهار وقدم الليل ناشـــراً أخيلته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزع والموت. فأوصـــد الفلاّحون الأبواب والنوافذ وأشـــعلوا الســـرج، وجلســـوا يصـــطلون بقرب المواقد غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم.

في تلك الســـاعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء، طرق الباب ودخل عليهم خدّام الشـــيخ عبّاس، فالتفتت راحيل مذعورة وشـهقت مريم مرتاعة، أمّا خليل فلبث هادئاً كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم.

فاقترب أحد الخدّام وألقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت أجش: ألست أنت الشاب المطرود من

الدير؟ فأجابه خليل ببطء: أنا هو فماذا تريدون؟

فقال الرجل: نريد أن نسير بك مكتوفاً إلى منزل الشيخ عبّاس، وإن أبديت ممانعة نجرّك على الثلج كالخروف المذبوح.

فانتصبت راحيل وقد اصفرّ وجهها وتجعّدت جبهتها وقالت بصوت مرتجف: أيّ ذنب أتاه أمام الشيخ عبّاس، ولماذا تريدون جره مكتوفاً؟

وقالت مريم ونغمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها: هو فرد وأنتم ثلاثة، فمن الجبانة أن تتحالفوا على إذلاله وتعذيبه.

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه: أيوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عبّاس؟ قال هذا وانتشل من وسطه حبلاً متيناً وهمّ ليوثق به كتفي خليل، فوقف الشاب ولم تتغيّر ملامحه، بل ظلّ رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوبعة، وسالت على شفتيه ابتسامة محزنة ثمّ قال: أنا أشفق عليكم أيّها الرجال، لأنّكم آلة قويّة عمياء في يد مبصر يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم. أنتم عبيد الغباوة هي أشدّ اسوداداً من بشرة الزنوج، وأكثر

استسلاماً للحيف والقساوة. كنت بالأمس مثلكم أيّها الرجال وغداً تصيرون مثلي، أمّا الآن فبيننا هوّة عميقة مظلمة تمتصّ ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون. ها أنذا فشدّوا ساعديّ وافعلوا بي ما شئتم.

سمع الرجال هذا الكلام، فجمدت عيونهم واقشعرّت أبدانهم وبهتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم، وأيقظت الميول العلويّة الهاجعة في أعماق قلوبهم، ولكنّهم عادوا فانتبهوا كأنّ صدى صوت الشيخ عبّاس قد تململ في مسامعهم، وذكّرهم بالمهمّة التي بعثهم من أجلها، فتقدّموا وأوثقوا ساعدي الشاب وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم. فاتبعتهم راحيل ومريم، ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع إلى الجلجلة، سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عبّاس.

- ٧ -

إن الأخبار، كبيرة كانت أم تافهة، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة، لأن بعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم ينصرفون بكليتهم إلى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود. وفي أيّام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لحف الثلوج، وتنزوي خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون اشدّ رغبة وأكثر ميلاً إلى استطلاع الأخبار لكي يملأوا بتأثيراتها أيّامهم الفارغة، ويصرفوا باستفساراتهم لياليهم الباردة.

وهكذا لم يقبض خدّام الشيخ عبّاس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكّان تلك القرية، وأثارت محبّة الاستفهام نفوسهم، فتركوا أكواخهم وتراكضوا من كل ناحية كالجنود المتفرقين، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الواسعة، الرجال والنساء والصبيان

وكلّهم يمدّون أعناقهم بتشــوّق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير، ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شــاركتا الأرواح الشــرّيرة في بثّ السـموم والعلل الجهنميّة في فضاء قريتهم.

جلس الشــيخ عبّاس على مقعد عال، وتربّع بجانبه الخوري اليـاس، ووقف الفلاحون والخـدّام مترقّبين محـدقين إلى الفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضــات، أمّا راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفـه والخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته؟ وماذا تفعل النظرات القاســية في فؤاد صــبيّة سمعت نداء الحبّ فاستيقظت؟

ونظر الشـيخ عبّاس إذ ذاك نحو الشــاب، وبصـوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلاً: ما اسمك أيّها الرجل؟

فأجابه: اســمي خليل. فقال الشــيخ: من هم أهلك وذووك وأين مسقط رأسك؟

فـالتفـت خليـل نحو الفلاحين النـاظرين إليـه بكره واشـمئزاز وقال: الفقراء والمسـاكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي. وهذه البلاد الواسعة هي مسقط رأسي.

فابتسم الشيخ عبّاس مستهزئاً ثمّ قال: إن الذين تنتسب إليهم يطلبون معاقبتك، والبلاد التي تدعيها وطنك تأبّى أن تكون من سكّانها.

فقال خليل وقد اضـــطربت أحشـــاؤه: إن الشـــعوب الجاهلة تقبض على أشـرف أبنائها وتسـلمهم إلى قســاوة العتاة والظالمين. والبلاد المغمورة بالذلّ والهوان تضطهد محبّيها ومخلصيها. ولكن أيترك الابن الصالح والدته إذا كانت مريضة. وينكر الأخ الرؤوف أخاه إذا كان تعساً؟

إن هؤلاء المساكين الذين أسلموني إليك مكتوفاً اليوم هم الذين أســـلموك رقابهم بالأمس. والذين أوقفوني مهاناً أمامك هم الـذين يزرعون حبّات قلوبهم في حقولـك، ويهرقون دماء أجســادهم على قدميك، وهذه الأرض التي تأبّى أن أكون من ســكّانها هي الأرض التي لا تفغر فاها وتبتلع الطغاة والطامعين.

فقهقه الشـــيخ عبّاس ضـــاحكاً كأنّه يريد أن يغرق بضـــحكه القبيح روح الشـــاب ويوقفها عن المســـير إلى أرواح السامعين البسطاء، ثمّ قال: أوَلم تكن راعياً لثيران الدير أيها الشاب الوقح؟ فلماذا تركت رعيتك وخرجت

مطروداً؟ هل ظننت أن الشـــعب يكون أكثر رأفة بالمجاذيب الملحدين من الرهبان الأتقياء؟

فأجابه خليل: كنت راعياً ولم أكن جزّاراً. كنت أقود العجول إلى المروج الخضـراء والمراعي الخصـبة، ولم أسـر بها قط إلى الطلول الجرداء. كنت أوردها الينابيع العذبة وأبعدها عن المستنقعات الفاسـدة. كنت أعيدها في المساء إلى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة.

هكذا كنت أفعل بالبهائم، ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسـكن هذا القصـر الرفيع وتتركه يبيد جوعاً في الأكواخ المظلمة. ولو كنت ترحم أبناء الله المخلصـين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالسـاً الآن على هذا المقعد الحريري وهم واقفون أمامك وقوف القضبان العارية أمام ريح الشمال.

فتحرّك الشـيخ عبّاس منزعجاً، وتلمعت على جبهته قطرة عرق باردة وتبدّل ضـحكه بالغضـب، ولكنّه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث أمام

رجاله وتابعيه، ثمّ قال مشيراً بيده: لم نأتِ بك مكتوفاً أيّها الكافر لنسمع هذيانك، بل أحضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرّير، فاعلم إذاً أنّك واقف الآن أمام سيّد هذه القرية وممثّل إرادة الأمير أمين الشهابي أيّده الله[1]، وأمام الخوري الياس ممثّل الكنيسة المقدّسة التي كفرت بها. فدافع إذاً عن نفسك ممّا اتهمت به، أو فاركع مسترحماً نادماً أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك، فنغفر لك ونجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في الدير.

فأجاب الشاب بهدوء: إن المجرم لا يحاكمه المجرمون، والكافر الشرّير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة.

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الواسعة، وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس الفضّية ناداهم قائلاً: أيّها الأخوة، إن الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيّداً على حقولكم قد أحضرني مكتوفاً ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم، والرجل

(١) الأمير أمين شهاب هو ابن الأمير بشير الكبير، وقد حكم الجبل بعد موت أبيه.

الذي جعله إيمانكم كاهناً في كنيستكم قد جاءني ليدينني، ويساعد على تعذيبي وإذلالي. أمّا أنتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألّماً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً. قد تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشاهدوا ابنكم وأخاكم مكتوفاً مهاناً. قد أسرعتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالب الكواسر. قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً أمام القضاة. أنا هو المجرم. أنا هو الكافر الذي طُرد من الدير فحملته العاصفة إلى قريتكم. أنا هو ذلك الشرّير، فاسمعوا احتجاجي، ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين، لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء، أمّا العدل فهو كلّ ما يطلبه الأبرياء.

قد اخترتكم قضاتي لأن إرادة الشعب هي مشيئة الله، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيّداً ثمّ احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم. قد قيل لكم إنّي رجل كافر شرّير، ولكنكم لم تعرفوا ما هي جريمتي. وقد رأيتموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي، لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظلّ مستترة وراء الضباب، أمّا العقاب فيظهر للناس ظهور

أسياف البرق في ظلمة الليل.

جريمتي أيّها الرجال هي إدراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم. وآثامي أيّتها النساء هي شفقتي عليكنّ وعلى أطفالكنّ الذين يمتصـــون الحياة من صـــدوركنّ ممزوجة بلهاث الموت.

أنا واحد منكم أيّها الجمع، وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تســـتفرغ قواكم، وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم. أنا أؤمن بالله الذي يســـمع نداء نفوســـكم المتوجّعة ويرى صـــدوركم المقروعة. وأؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متســـاويين أمام وجه الشـــمس. وأؤمن بـالتعـاليم التي تحرّرني وتحرّركم من عبودية البشـــر، وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الأرض موطئ أقدام الله.

كنت في الدير راعياً للبقر، ولكن انفرادي مع البهائم الخرساء في البريّة الساكنة لم يعمني عن المأساة الأليمة التي تمثلونها كرهاً في الحقول. ولم يصـــمّ أذنيّ عن صـــراخ اليأس المتصـــاعد من قراني الأكواخ. قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج

سـائر وراء ذئب خاطف إلى وكره، فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً، فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحددة، ثمّ احتال عليّ وأبعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرّد ويتفرّق مذعوراً إلى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل.

قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رايتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لأنّني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً صارخاً متموّجاً في خلايا الدير. ولكنّني لم أخف قط ولم يضعف قلبي لأن صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجدّد قواي، ويحبّب إليّ الاضطهاد والاحتقار والموت.

أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين: متى صرخنا متظلّمين وأيّ فرد منّا يتجاسر أن يفتح شفتيه؟ وأنا أقول لكم إن نفوسكم تصرخ متظلّمة في كلّ يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كلّ ليلة، ولكنّكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم، لأن المنازع لا يسمع حشرجة صدره، أمّا الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون. والطائر المذبوح

يرقص متململاً قســـر إرادته ولا يعلم، أمّا الناظرون فيعلمون.

في أي ســـاعة من النهار لا تتأوّه أرواحكم متوجّعة؟ أفي الصـــباح عندما تنهركم محبّة البقاء وتمزّق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول؟ أم في الظهيرة عندما تتمنّون الجلوس في ظلّ الأشـــجار لكي تتّقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين إلى أكواخكم ولا تجدون ســـوى الخبز اليابس والماء العكر؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الأسـرّة الحجريّة فتنامون قلقين، ولا يكحل النعاس أجفانكم إلاّ وتهبّون متوهّمين صـوت الشـيخ يرنّ في آذانكم؟ وفي أي فصـــل من الســـنة لا تندب قلوبكم متحســـرة؟ أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حلّة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزّقة؟ أم في الصيف عندما تحصـــدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملأون أهراء سـيّدكم الظلوم بالغلّة، ولا تحصـلون لقاء أتعابكم على غير التبن والزوان؟ أم في الخريف عندما تجنون الأثمار وتعصـرون العنب ولا يكون نصـيبكم منها ســـوى الخلّ والبلوط؟ أم في الشـــتاء عندما يضـــطهدكم الفضاء ويطردكم البرد والزمهرير إلى

الأكواخ الملتحفة بالثلوج، فتجلســـون بجانب المواقد متأفّفين خائفين غضب الزوابع والعواصف؟

هذه هي حياتكم أيّها الفقراء. هذا هو الليل المخيّم على أرواحكم أيّها التعساء. هذه هي أشباح ذلّكم وشقائكم أيّها المســـاكين. هذا هو الصـــراخ الأليم المســـتمر الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم، فاستيقظت وتمرّدت على الرهبان وكفرت بمعيشـــتهم، ووقفت منفرداً متظلّماً باســـمكم واســـم العدالة المتوجّعة بأوجاعكم، فحســـبوني كافراً شـــرّيراً وطردوني من الدير فجئت لكي أشـــاطركم التعـاســـــة وأعيش بقربكم، وأمزج دموعي بـدموعكم، فأســـلمتموني مكتوفاً إلى عدوّكم القوي الذي يغتصـــب خيراتكم، ويحيا غنيّاً بأموالكم ويملأ جوفه الواســـع من أثمار أتعابكم.

ألا يوجـد بينكم شـــيوخ يعلمون أن الأرض التي تحرثونها وتحرمون غلّتها هي لكم وقد اغتصـــبها والد الشيخ عبّاس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حدّ الســـيف؟ أما ســـمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت

آيات الدين مخطوطة على شفتي الكاهن؟ ألا تعلمون أن ممثلي الدين وأبناء الشـــرف الموروث يتعاونون على إخضـــاعكم وإذلالكم واســـتقطار دماء قلوبكم؟ أي رجل منكم لم يلوِ عنقه كاهن الكنيســـة أمام ســـيّد الحقول؟ وأي امرأة بينكم لم يزجرها ســـيّد الحقول ويســـتحثّها لكي تتبع كاهن الكنيسة؟

قد ســـمعتم بأن الله قال للإنســـان الأوّل: بعرق جبينك تأكل خبزك. فلماذا يأكل الشيخ عبّاس خبزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشـــرب خمره ممزوجة بدموعكم؟ هل ميّز الله هذا الرجل وجعله ســـيّداً إذ كان في رحم أمّه؟ أم غضـــب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة لكي تجمعوا غلّـة الحقول ولا تـأكلوا غير أشـــواك الأوديـة، وتقيموا القصـــور الفخمـة ولا تســـكنوا غير الأكواخ المتداعية؟

قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلاميذه: مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا. لا تقتنوا فضّـــة ولا ذهباً ولا نحاســـاً في منطقكم. إذاً أي تعـاليم أبـاحـت للرهبـان والكهّـان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضّة والذهب؟ أنتم

تصـــلبون في ســكينة الليالي قائلين: أعطنا يا رب خبزنا كفاف يومنا. والرب قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز الكفاف، فهل وهب رؤساء الأديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنّه باع سيّده بالفضة، فأيّ شيء يجعلكم تباركون الذين يبيعونه في كل يوم من حيـاتهم؟ إن يهوذا التعس قد نـدم على خطيئتـه فشنق نفسه، أما هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة وأذيـال طويلـة نـاعمـة، وقلائد ذهبيـة وخواتم ثمينـة. أنتم تعلّمون أبنـاءكم محبّـة النـاصـــري، فكيف تعلّمونهم الخضــوع أمام مبغضــيه ومخالفي تعاليمه وشــرائعه؟ قد عرفتم أن رســل المســيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يحيوا فيكم الروح المقدّســـة، فهل تعرفون أن الرهبان والكهّان يقتلون أرواحكم لكي يحيوا متمتّعين بخيراتكم متلـذّذين بحرتقة قيودكم؟ ماذا يغرّكم أيّها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين أمام صـــنم مخيف أقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم؟ وأي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرثاً لأبنائكم؟

نفوسكم في قبضة الكاهن، وأجسادكم بين

مخالب الحاكم، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحزان. فأيّ شــيء في الحياة يمكنكم أن تشــيروا إليه قائلين: هذا لنا؟ أتعرفون أيّها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصيّاً على أقداس أسرار نفوسكم؟ اسمعوني فأبيّن لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره.

هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدّساً فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم، ومراء يقلّده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقه سيفاً سنيناً ويرفعه فوق رؤوسهم، وظالم يسلّمه الضــعفاء أعناقهم، فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد، ولا يتركها حتى تنســحق كالفخار وتتبدّد كالرماد.

هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنّه الراعي خروفاً وينام مطمئناً، وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة إثر نعجة.

هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل، وطامع يتبع الدينار إلى مغاور الجن، ويمتصّ دماء العباد مثلما تمتصّ رمال الصحراء قطرات المطر،

وبخيل يحرص على أنفاسه ويذخر ما لا يحتاج إليه.

هو محتال يدخل من شـــقوق الجدران ولا يخرج إلاّ بســقوط البيت. ولص صــخريّ القلب ينتزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم.

هو مخلوق عجيب له منقار النســر، ومقابض النمر، وأنياب الضــبع، وملامس الأفعى. خذوا كتابه ومزّقوا ثوبـه. وانتفوا لحيتـه، وافعلوا بـه مـا شــئتم، ثمّ عودوا وضعوا الدينار في كفّه فيغفر لكم ويبتسم بمحبّة. اصفعوا خدّه وابصــقوا بوجهه ودوســوا عنقه ثمّ أجلســوه على موائدكم فيتناسى ويتهلّل ويحلّ حزامه لينمو جوفه بمآكلكم ومشاربكم. جدّفوا على اسم ربّه واقذفوا بعقائده واسخروا بإيمانه، ثمّ ابعثوا إليه بجرّة من الخمر أو بسلّة من الفاكهة فيسامحكم ويبرّركم أمام الله والناس.

يرى المرأة فيحوّل وجهه قائلاً بأعلى صوته: ابتعدي عني يا ابنة بابل. ثمّ يهمس بسرّه قائلاً: الزيجة أفضل من التحرّق. يرى الفتيان والصـبايا سـائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو الســماء ويهتف قائلاً: باطلة الأباطيل، وكلّ شيء تحت الشمس باطل. ثمّ يختلي ويتنهد قائلاً:

لتفنّ الشـــرائع وتضـــمحلّ التقاليد التي أبعدتني عن غبطـة الحيـاة وحرمتني ملـذات العمر... يقول للنـاس مستشـهداً: لا تدينوا لئلا تدانوا. ولكنّه يدين بقسـاوة جميع الذين يســـخرون بمكارهه، ويبعث بأرواحهم إلى الجحيم قبل أن يبعدهم الموت عن هذه الحياة. يحدثكم رافعاً عينيه بين الآونة والأخرى نحو العلاء، أمّا فكرته فتظلّ منسـابة كالأفعى حول جيوبكم. يناديكم بقوله لكم: يا أولادي ويا أبنائي، وهو لا يشـعر بالعاطفة الأبويّة، ولا تبتسـم شـفتاه لرضـــيع، ولا يحمل طفلاً على منكبيه. يقول لكم هـازّاً رأســـه بتخشّـــع: لنترفعن عن العالميات، لأن أعمارنا تضــمحلّ كالضــباب، وأيّامنا تزول كالفيء، وإذا نظرتم جيّداً رأيتموه متمسكاً بأذيال الحياة، متشبثاً بأهداب العمر، متأسّفاً على ذهاب الأمس، خائفاً من سرعة اليوم، مترقّباً مجيء الغد.

يطلـب منكم الإحســـان وهو أوفر منكم مـالاً، فـإن أجبتموه يبـارككم علنـاً، وإن منعتموه يلعنكم ســـرّاً. في الهيكـل يوصـــيكم بـالفقراء والمحتـاجين، وحول منزلـه يصـــرخ الجائعون، وأمام عينيه تمدّ أيدي البائســـين، فلا ينظر ولا يسمع... يبيع صلاته، ومن لا يشتري يكون

كافراً بالله وأنبيائه، محروماً من الجنّة والنعيم.

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيّها المسيحيون. هذا هو الراهب الذي يمتصّ دماءكم أيّها الفقراء. هذا هو الكاهن الذي يرسم إشارة الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله. هذا هو الأسقف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيّداً، وتطوّبونه قدّيساً فيصير شيطاناً، وترفعونه نائباً فيصبح نيراً ثقيلاً. هذا هو الظلّ الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها إلى الأبديّة. هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني، لأن روحي تمرّدت على أعداء يسوع الناصري الذي أحبتكم ودعاكم إخوة له ثمّ صُلب من أجلكم.

وتهلّل وجه الشاب المكتوف، وقد شعر باليقظة الروحيّة المتمايلة في صدور سامعيه، واتضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين إليه، فرفع صوته وزاد قائلاً: قد سمعتم أيّها الإخوة بأن الشيخ عبّاس قد أقامه الأمير أمين الشهابي سيّداً على هذه القرية. وسمعتم أيضاً بأن الأمير قد أقامه المليك حاكماً على هذا الجبل. فهل سمعتم أو رأيتم القوّة التي أقامت الملك ربّاً على هذه

البلاد؟ أنتم لا ترون تلك القوّة متجسّدة ولا تسمعونها متكلّمة، ولكنّكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم وتسجدون أمامها مصلّين مبتهلين وتنادونها بقولكم: أبانا الذي في السموات.

نعم إن أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء، وهو القادر على كلّ شيء. ولكن هل تعتقدون أن أباكم الذي أحبّكم وعلمكم سبل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين ومرذولين؟ هل تعتقدون أن الله الذي ينزل السحاب مطراً، ويستنبت البذور زرعاً. وينمي الزهور أثماراً، يريد أن تكونوا جياعاً محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخاً متلذّذاً؟ هل تعتقدون أن الروح السرمدي الذي يوحي إليكم محبّة الزوجة والرأفة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيّداً قاسياً يظلمكم ويستعبد أيّامكم؟ هل تعتقدون أن النواميس الأزليّة التي تحبّب إليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يحبّب إليكم ظلمة الموت؟ هل تعتقدون أن الطبيعة قد بعثت القوى في أجسادكم لكي تعود فتخضعها أمام الضعف؟

أنتم لا تعتقدون بهذه الأشياء، لأنّكم إذا فعلتم

تكونون كافرين بالعدل الإلهي، جاحدين نور الحق الذي يضـــيء على جميع الناس. إذاً أيّ شـــيء يجعلكم تساعدون الشرّير على نفوسكم؟ ولماذا تخالفون مشيئة الله الذي بعثكم أحراراً إلى هذا العالم وتصـــيرون عبيداً للمتمردين على ناموســـه؟ كيف ترفعون أعينكم نحو الله القوي وتدعونه أباً، ثمّ تحنون رقابكم أمام الإنســـان الضعيف وتدعونه سيّداً؟ كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر؟ أما دعاكم يسوع إخوة، فكيف يدعوكم الشيخ عبّاس خدماً؟ أما جعلكم يســـوع أحراراً بالروح والحق، فكيف يجعلكم الأمير عبيداً للحيف والفســـاد؟ أما رفع يســـوع رؤوســـكم نحو الســـماء، فكيف تخفضـــونها إلى التراب؟ أما ســـكب يســـوع النور في قلوبكم، فكيف تغمرونها بالظلام؟

إن الله بعث أرواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالاً باســـتطلاعها خفايا الأيّام والليالي، فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ؟ إن الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية، فلماذا تجزّونها بأيديكم وتدبون كالحشرات على أديم الأرض؟ إن الله قد وضع في

قلوبكم بذور السـعادة، فكيف تنتزعونـها وتطرحونـها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها الأرياح؟ إن الله قد رزقكم البنين والبنـات لكي تـدربوهم على ســبـل الحقّ وتملأوا صـــدورهم بـأغـاني الكيـان وتتركوا لهم غبطـة الحيـاة إرثـاً ثمينـاً، فكيف تهجعون وتخلفونـهم أمواتـاً بين أيدي الدهر، غرباء في أرض مولدهم، تعســاء أمام وجه الشـــمس؟ أوَليس الوالد الذي يترك ابنة الحر عبداً، يكون كالوالد الذي يســأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً؟ أما رأيتم عصـــافير الحقـل تـدرّب فراخهـا على الطيران، فكيف تعلّمون صـغاركم جرّ القيود والسـلاسـل؟ أما رأيتم زهور الأودية تسـتودع بذورها حرارة الشـمس، فكيف تسـلّمون أطفالكم إلى الظلمة الباردة؟

وســكت خليل هنيهة كأن أفكاره وعواطفه قد نمت واتّســعت فلم تعد ترتدي الألفاظ ثوباً، ثمّ قال بصـــوت منخفض: إن الكلام الذي سـمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الـذي طردني الرهبـان من أجلـه؛ والروح التي شـــعرتم بتموّجـاتهـا في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفـاً أمـامكم، فـإذا وثـب عليّ ســيّد حقولكم وكـاهن كنيستكم وصرعاني أموت سعيداً فرحاً، لأنّي

بإظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تممت مشيئة بارئي وبارئكم.

كان خليل يتكلّم وفي صـوته الجهوري نغمة سـحريّة تضـطرب لها قلوب الرجال الناظرين إليه بإعجاب يشـابه اسـتغراب الأعمى إذا ما أبصـر فجأة، وتهتزّ لحلاوتها نفوس النسـاء المحدقات إليه بأعين طافحة بالدموع. أمّا الشـيخ عبّاس والخوري الياس، فكانا يرتجفان ويتلوّيان كالمطروحين على وسـائد من الأشـواك. وقد حاول كلّ منهما أن يوقف الشـاب عن الكلام فلم يسـتطع، لأنّه كان يخاطب الجمع بقوّة علويّة تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقّتها.

ولمـا انتهى خليـل من كلامـه، وقـد تراجع قليلاً إلى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم، حدث سـكوت عميق كأن روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الواسـعة قد حوّلت بصـائر القرويّين نحو مكان قصـيّ وانتزعت الفكر والإرادة من نفسـي الشـيخ والكاهن وأوقفتهما مرتعشـين أمام أشباح ضميرهما المزعجة.

حينئذٍ وقف الشيخ عبّاس، وقد تقلّصت ملامحه

واصــــفرّ وجهه، وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلاً بصــوت مخنوق: ما أصــابكم أيّها الكلاب؟ هل تسـمّمت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل أجســـادكم، فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهذار؟ هل اكتنفت روح هذا الشيطان أرواحكم وكبّلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا إبادته؟

قال هذه الكلمات وامتشـــق ســـيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به، فتقدّم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء: أغمد سيفك يا سيّدي، لأن من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك.

فارتعش الشيخ عبّاس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً: هل يعترض الخادم الضعيف سيّده ووليّ نعمته؟

فأجابه الرجل: الخادم الأمين لا يشـــارك ســـيّده بالشـرور والمظالم. إن هذا الشـاب لم يقل غير الحق، ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة.

وتقدّم رجل آخر وقال: لم يقل هذا الفتى شـــيئاً يستوجب الحكم، فلماذا تضطهده؟

ورفعت امرأة صوتها وقالت: لم يقذف بالدين ولم

يجدّف على اسم الله، فلماذا تدعوه كافراً؟

فتشجّعت راحيل إذ ذاك وتقدّمت إلى الأمام وقالت: إن هذا الشاب يتكلّم بألسنتنا ويتظلّم عنّا، ومن يريد به شرّاً يكون عدوّاً لنا.

فقال الشيخ عبّاس صارفاً أسنانه: وأنتِ تتمرّدين أيضاً أيّتها الأرملة الساقطة؟ هل نسيتِ ما أصاب زوجك عندما تمرّد عليّ منذ خمس سنوات؟

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجّعة كمن أدرك سرّاً هائلاً، والتفتت نحو الجمع وصرخت بأعلى صوتها: هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته في ساعة غضبه؟ ألا تذكرون أن زوجي قد وُجد قتيلاً في الحقل، وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنّه كان مختبئاً وراء هذه الجدران؟ ألا تذكرون أن زوجي كان رجلاً شجاعاً؟ أما سمعتموه متكلّماً عن مكاره الشيخ عبّاس مندّداً بأعماله متمرّداً على قساوته؟

ها قد أبانت السماء قاتل جاركم وأخيكم وأوقفته أمامكم، فانظروا إليه واقرؤوا جريمته مكتوبة على وجهه المصفرّ. انظروه متململاً جازعاً. تأملوا كيف قد

ســـتر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم محدقة إليه. انظروا السيّد القوي مرتجفاً كالقبة المرضوضة. انظروا الجبّار العظيم مرتاعاً أمامكم كالعبد الخاطئ. إن الله قد أراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه، وأبان لكم النفس الشرّيرة التي جعلتني أرملة بين نسائكم، وتركت ابنتي يتيمة بين أبنائكم.

وبينما راحيل تتكلّم صـــارخة وألفاظها تنقضّ كالصـواعق على رأس الشـيخ عبّاس. وضـجيج الرجال وزفرات النســاء تتموّج كشـــعلات النّار والكبريت حول دماغه، وقف الكاهن وأخذ بساعده وأجلسه على المقعد، ثمّ نادى الخدم بصوت مرتجف قائلاً:

اقبضـــوا على هذه المرأة التي تتهم ســـيّدكم زوراً وجرّوها مع هذا الشـــاب الكافر إلى غرفة مظلمة، ومن يعترضكم يكون شريكاً لهما بالجريمة، محروماً نظيرهما من الكنيسة المقدّسة.

فلم يتحرّك الخدّام من أماكنهم، ولم يحفلوا بأوامر الكاهن، بل لبثوا جامدين محدقين إلى خليل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينه وشماله، كأنهما

جناحان قد فتحتهما ليطير ويحلق بهما في السحاب.

فقال الكاهن ولحيته تتراقص حنقاً: هل تكفرون بنعمة سـيّدكم أيّها الأجلاف، وتجحدون فضـله وتنكرونه من أجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة؟

فأجابه أكبر الخدّام سـنّاً وقال: قد خدمنا الشـيخ عبّاس لقاء الخبز والمأوى، ولكنّنا لم نكن له عبيداً قط. قال هذا ونزع عباءته وكوفيته وطرحهما أمام الشـيخ عبّاس وزاد قائلاً: لا أريد أن أنعم جسـدي بهذه الملابس الحقيرة كيفما تبقى نفسي متعذّبة في منزل سفّاك الدماء.

ففعل الخدام كافة نظيره وانضمّوا إلى الجمع، وعلى وجوههم سيماء الانعتاق والحريّة.

فلما رأى الخوري الياس ما فعلوه، وقد شـعر بأن سـلطته الكاذبة قد تضـعضـعت، خرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة التي أتت بخليل إلى تلك القرية.

حينئذٍ تقدّم رجل من بين الجمع وحلّ وثاق خليل ونظر إلى الشـيخ عبّاس المرتمي على كرسـيه كجثّة هامدة، وبلهجة مملوءة بالعزم والإرادة خاطبه قائلاً: إن الشاب الذي أحضرته مكتوفاً لكي تحاكمه كمجرم أثيم،

قد أنار قلوبنا المظلمة وحوّل بصرنا نحو سبل الحقّ والمعرفة، والأرملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة، قد أبانت لنا السرّ الهائل الذي ظلّ مكتوماً خمسة أعوام. أمّا نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار بدينونة البريء واضطهاد العادل.

والآن وقد انفتحت أعيننا وأرتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا ندنيك، ونهملك ولا نشكوك، ونبتعد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك.

وارتفعت إذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الواسعة، فكان هذا يقول: هلمّوا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا. وذا يصرخ: تعالوا نتبع الشاب إلى بيت راحيل ونسمع حكمته المغرية وأقواله العذبة. وذاك يهتف: لنفعلنّ إرادة خليل، فهو أعلم بحاجاتنا وأدرى منّا بمطالبنا. وغيره يقول: إن كنّا نريد العدل والإنصاف فلنذهب غداً إلى الأمير ونخبره بجرائم عبّاس ونطلب إليه أن يعاقبه. وآخر يصيح: يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلاً ممثلاً له

في هذه القرية. وغيره يقول: يجب أن نشكو الخوري إلياس إلى الأسقف لأنّه يشارك الشيخ بجميع أعماله.

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كلّ ناحية، وتهبط كالسهام الحادة على صدر الشيخ الحفوق، رفع خليل يده وأسكت الجمع بإشارة، ثمّ ناداهم قائلاً: اسمعوا وتبصروا أيها الإخوة ولا تكونوا متسرعين. أنا أطلب إليكم باسم محبتي ألاّ تذهبوا إلى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ، لأن الكواسر لا ينهش بعضها البعض. ولا تشكوا الكاهن إلى رئيسه، لأن الرئيس يعلم أن البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب، ولا تطلبوا أن أكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية، لأن الخادم الأمين لا يريد أن يكون عوناً للسيّد الشرّير. إن كنت خليقاً بحبّكم وانعطافكم، دعوني أعيش بينكم وأشاركم بأفراح الحياة وأحزانها، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل لأنّني إن لم أكن كواحد منكم أكن كالمرائين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشرّ.

والآن، وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة، تعالوا

نذهب تاركين الشيخ عبّاس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسه على الأبرار والأشرار.

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجميع كأنّ في شخصه قوّة تتحوّل نحوها الأبصار كيفما تحوّلت. وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهدوم، متوجّعاً كالقائد المغلوب. ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعته الفضيّة في السماء التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالخراف الناظرة إلى راعيها، فتحرّكت روحه في داخله كأنّه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة، وشاهد في تلك الأكواخ الحقيرة المكتنفة بالثلوج المتجلّدة رمز البلاد المغمورة بالذلّ والهوان. فوقف وقفة نبيّ يسمع صراخ الأجيال، وتغيّرت ملامحه واتّسعت عيناه كأن نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجرّ قيود العبودية في تلك الأودية، فرفع كفّيه نحو العلاء وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلاً:

من أعماق هذه الأعماق نناديكِ أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفّنا نحوكِ

فانظرينا. وعلى هذه الثلوج نسـجد أمامك فارحمينا.
أمام عرشـك الرهيب نقف الآن ناشـرين على أجسـادنا أثواب آبائنا الملطّخة بدمائهم، عافرين شـعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم، حاملين السـيوف التي أغمدت بأكبادهم، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سـجونهم، مصلّين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم، فأصغي أيتها الحريّة واسمعينا. من منبع النيل إلى مصبّ الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموّجاً مع صراخ الهاوية، ومن أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنان تمتد إليك الأيدي مرتعشـة بنزع الموت، ومن شـاطئ الخليج إلى أذيال الصـحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة. فالتفّي أيتها الحرية وانظرينا. في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تقرع أمامك الصدور، وفي خلايا البيوت الجالسـة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب، وفي قراني المنازل المحجوبة بضـباب الجور والاسـتبداد تحنّ إليك الأرواح، فانظري أيتها الحرية وارحمينا. في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة،

وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة، فاشفقي أيتها الحريّة وخلّصينا. في شوارعنا الضيّقة يبيع التاجر أيّامه ليعطي أثمانها للصوص المغرب، ولا من ينصحه. وفي حقولنا المجدية يحفر الفلاح الأرض بأظافره، ويزرعها حبّات قلبه، ويسقيها دموعه، ولا يستغلّ غير الأشواك ولا من يعلّمه. وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يترأف به. فتكلّمي أيتها الحرية وعلّمينا.

نعاجنا ترعى الأشواك والحسك بدلاً من الزهور والأعشاب، وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلا من الذرة، وخيولنا تلتهم الهشيم بدلاً من الشعير. فهلمّي أيتها الحرية وأنقذينا.

منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا، فمتى يجيء الفجر؟ من الحبوس إلى الحبوس تنتقل أجسادنا والأجيال تمرّ بنا ساخرة، فإلى متى نحتمل سخرية الأجيال؟ ومن نير ثقيل إلى نير أثقل تذهب أعناقنا وأمم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة منّا، فإلامَ نصبر على ضحك الأمم؟ ومن القيود إلى القيود تسير ركابنا، فلا

القيود تفنى ولا نحن ننقرض، فإلى متى نحيا؟

من عبودية المصريين إلى سبي بابل إلى قساوة الفرس إلى خدمة الإغريقيين إلى استبداد الروم إلى مظالم المغول إلى مطامع الإفرنج، فإلى أين نحن سائرون الآن، ومتى نبلغ جبهة العقبة؟

من مقابض فرعون إلى مخالب نبوخذ نصر إلى أظافر الإسكندر إلى أسياف هيرودس إلى براثن نيرون إلى أنياب الشيطان، فإلى أين نحن ذاهبون الآن، ومتى نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم؟

بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم، وبقوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم، فحتى متى نبني القصور والصروح، ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف، ونملأ الأهراء والخزائن، ولا نأكل غير الثوم والكرّاث، ونحوك الحرير والصوف، ولا نلبس غير المسوح والأطمار؟

بخبثهم واحتيالهم قد فرّقوا بين العشيرة والعشيرة، وأبعدوا الطائفة عن الطائفة، وبغضوا القبيلة بالقبيلة،

فحتى منى نتبدّد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاســية، ونتصارع كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة؟

لحفظ عروشــهم وطمأنينة قلوبهم قد سـلحوا الدرزي لمقاتلة العربي، وحمّسـوا الشـيعي لمصـارعة السـني، ونشّطوا الكردي لذبح البدوي، وشجّعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي. فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم، وإلى متى يتوعد الجاد جاره بجانب قبر الحبيبة، وإلامَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله؟

أصـغي أيتها الحرية واسـمعينا، التفتي يا أم سـاكني الأرض وانظرينا، فنحن لسنا أبناء ضرّتك. تكلّمي بلسان فرد واحد منّا، فمن شـرارة واحدة يشـتعل القشّ اليابس. أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا، فمن سـحابة واحدة ينبثق البرق، وينير بلحظة خلايا الأودية وقمم الجبال. بددي بعزمك هذه الغيوم السـوداء وانزلي كالصـاعقة واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة، المغمورة بالدماء والدموع؟

اسمعينا أيتها الحرية، ارحمينا يا ابنة أثينا، انقذينا

يا أخت رومة، خلّصينا يا رفيقة موسى، أسعفينا يا حبيبة محمّد، علّمينا يا عروسة يسوع، قوّي قلوبنا لنحيا، أو شدّدي سواعد أعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح.

كان خليل يناجي السماء وعيون الفلاّحين محدقة إليه، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه، فكأنّه أصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد. ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء: قد جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عبّاس لكي نرى نور النهار، وأوقفتنا المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم ونتضمّ كالفراخ تحت جناحي الروح الخالدة. فليذهب الآن كلّ منّا إلى فراشه لينام مترقباً لقاء أخيه في الصباح.

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم إلى كوخهما. فتفرّق إذ ذاك الجمع وذهب كلّ إلى بيته مفكّراً بما سمعه ورآه، شاعراً بملامس حياة جديدة في داخل نفسه.

ولم تمرّ ساعة حتى انطفأت السرج في الأكواخ وألقت

السكينة وشاحها على تلك القرية. وحملت الأحلام أرواح الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل، مرتعدة أمام ذنوبه، متعذّبة بين أنياب هواجسه.

- ٨ -

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب أولئك القرويّين، محدّثاً إيّاهم في كلّ يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم، مصوّراً لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين، مردّداً على مسامعهم أخبار الحكّام القساة، جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الأزليّة التي تقيد الأجرام بعضها ببعض، فكانوا يصغون إليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الأمطار، ويردّدون كلامه في خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده أجساداً من محبّتهم، غير حافلين بالخوري إلياس الذي أصبح يتزلّف إليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ ويقترب منهم ليّناً كالشمع بعد أن كان صلباً كالرخام.

أمّا الشيخ عباس فقد أصيب بعلّة في نفسه شبيهة

بالجنون، فكان يســـير ذهاباً وإياباً في رواق منزله كالنمر المسـجون، وينادي خدّامه بأعلى صـوته فلا يجيبه غير الجدران، ويصرخ مستنجداً برجاله فلا يأتي لمعونته غير زوجته المســكينة التي عانت من خشــونة طباعه ما قاســاه الفلاّحون من مظالمه واســتبداده. ولما جاءت أيام الصوم، وأعلنت السماء قدوم الربيع، انقضت أيّام الشيخ بانقضـــاء زوابع الشـــتاء، فمات بعد نزع موجع مخيف، وذهبت روحه محمولة على بســـاط أعماله لتقف عارية أمـام ذلـك العرش الـذي نشـــعر بوجوده ولا نراه. وقد اختلفت آراء الفلاّحين في سبب موته، فكان بعضـهم يقول قد اختلّ شـعوره فقضــى مجنوناً، وبعضــهم يقول قد سـمّم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحراً. أمّا النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بأنّه مات خائفاً مرتاعاً، لأن شـــبح ســـمعان الرامي كان يظهر له مرتدياً أثواباً ملطّخة بالدماء، ويقوده كرهاً عندما ينتصف الليل إلى المكان الذي وُجد فيه مصـــروعاً منذ خمســـة أعوام.

* * *

وأعلنت أيّام نيسان لسكّان تلك القرية سرائر الحبّ

الخفيّة الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل، فتهلّلت وجوههم فرحاً، ورقصت قلوبهم ابتهاجاً، ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي أيقظ قلوبهم إلى محيط أوسع وأرقى من وسطهم، فطافوا يبشرون بعضهم بعضاً بصيرورته جاراً قريباً وصهراً محبوباً لكلّ واحد منهم.

ولما جاءت أيّام الحصاد خرج الفلاّحون إلى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر، ولم يكن الشيخ عبّاس هناك ليغتصب الغلّة ويحملها إلى أهرائه ومخازنه، بل كان كلّ من الفلاّحين يستغلّ الحقل الذي فلحه وزرعه، فامتلأت تلك الأكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت.

أمّا خليل فكان يشاطرهم الأتعاب والمسرّات ويساعدهم بجمع الغلّة وعصر العنب واجتناء الأثمار. ولم يكن يميز نفسه عن الواحد منهم إلاّ بمحبّته ونشاطه.

منذ تلك السنة إلى أيّامنا هذه أصبح كلّ فلاّح في تلك القرية يستغلّ بالفرح الحقل الذي زرعه بالأتعاب، ويجمع بالمسرّة ثمار البستان الذي غرسه بالمشقّة، فصارت الأرض ملكاً لمن يفلحها، والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحرثها.

والآن وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة، وراودت اليقظة أجفان اللبنانيّين، يمرّ المسافر على طريقه إلى غابة الأرز ويقف متأمّلاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي، فيرى أكواخها قد صارت بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة، وإن سأل أحد سكانها عن تاريخ الشيخ عبّاس يجيبه مشيراً نحو حجارة متقوّضة وجدران مهدومة مرتمية قائلاً: هذا قصر الشيخ عبّاس وهذا هو تاريخ حياته. وإن سأله عن خليل يرفع يده إلى العلاء قائلاً: هنالك يسكن خليلنا الصالح، أمّا تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا، فلن تمحوه الأيّام واللّيالي...

الفهرس